حواديت الشرفة

مجموعة **قصصية**

الطبعة الثانية

مريم أنيس

إهداء

إلى أبي و أمي فهما لي كل الحياة

إلى زوجي، أنت مصدر كل طمأنينة وحب ودعم، أنت من تجعل عالمي مكانًا مبهجًا وآمنًا ومنسجمًا.

إلى ابني، صديقي المقرب الذي وهبني إياه الله .

إهداء

إلى كل من كسره ماضيه، ومل الحاضر، وفقد شغفه في المستقبل.

هناك أمل،

هناك فرح،

هناك حياة.

حواديت الشرفة

الشرفة .....هي جلسات العائلة المغمورة بالونس.
هي الحنين لقراءة كتاب مفضل على شرف القمر.
هي الشوق لحكايات الأجداد.
هي الشاهدة على لحظات الروقان والاستجمام.
هي المكان الأنسب لسماع نبضات ألحان عبد الحليم وأم كلثوم.

الشرفة هي المكان الذي به نطلق العنان لأفكارنا ، نفكر في أحلامنا، نسترجع ذكرياتنا، نتنسم حاضرنا، نتأمل مستقبلنا !

نجلس بالشرفة صباحًا ومساءً؛ فنخرج لها عندما يغمرنا الفرح لنطير مع نسمات الهواء العليل، ونلجأ أيضًا لها عندما يتملكنا الحزن والشجن لنشكو حالنا للسماء منتظرين فرج الله!

وما أحلى الجلوس بالشرفة ساعة العصرية مع العائلة لتحتسي الشاي بمزاج ، فتدور الأحاديث ويطول الونس.

ما أجملها لحظات في الشرفة ليلاً !
حينما تداعب أعيننا النجوم ....و تلاحق أنظارنا السماء مغازلين جمال القمر، متجاهلين عقارب الساعة ...فقط تنبهنا لدغات برودة الشتاء!

حواديت الشرفة..... حواديت يدور جزء منها في الشرفة أو تحكى في الشرفة، حواديت تربط الواقع بالخيال وتسرده في قالب قصصي من خلال نظرة فلسفية مبسطة بها بعض اللمحات من خبايا النفس وعلم الذات.

حواديت يكثر فيها السؤال الفلسفي وتقل فيها الأجوبة التقليدية، حواديت أبطالها هم: الوحدة والماضي والأحلام والفشل والرضا ولقمة العيش، وغيرها.

حواديت الشرفة هي قصص قصيرة تطرح السؤال وعليك عزيزي القارئ الجواب!

لعنة تجسيد المشاهير

لعنة تجسيد المشاهير

بعد أن قرأت السيناريو وانتهيت منه، أعجبت جدًّا بما قرأت وأيقنت أنه فيلم قيم ولا يمكن أن أتنازل عن أداء دور البطولة به. بالطبع رشحني المخرج لأداء دور البطل التاريخي العظيم الذي حقق إنجازات عظيمة وله مكانة كبيرة في قلوب الناس. فرحت جدًّا بهذه الفرصة، خصوصًا أن هذا البطل سوف ينضح عليَّ بوهجه ويعطيني بريقًا وبصمة لن تمحى من تاريخي.

لا أنكر أنني علمت أنه تم ترشيح عدة ممثلين من قبلي، ولكن لم يكن هناك نصيب واعتذروا عن تأدية الدور، هناك من قال إنه مشغول، وهناك من خاف ألا يكون على قدر من المسئولية لأداء شخصية هذا البطل، وهناك من رفض دون إبداء أي أسباب! وللمصادفة سمعت بعض الإشاعات التي تخمن أن بعضًا ممن رفضوا أداء الدور قد تعرضوا للعنة تجسيد المشاهير!

لم أكن أسمع جديًّا عن هذه الظاهرة الغريبة وظننت أنها مثلًا شيء يصيب الإنسان من روح الشخصية التي يتقمصها، فتظل بعض معالم منها لتلتصق بشخصيته الأصلية، ولا يتخلص من آثارها بسهولة. لم يكن لديَّ فكرة كبيرة عن هذا الموضوع فاضطررت للبحث عنه وجمع بعض المعلومات حتى أتأكد إن كانت هذه حقائق أم مجرد أوهام! فتحت شبكة الإنترنت وظللت أبحث لساعات عن الحوادث التي حدثت من قبل تحت اسم لعنة تجسيد المشاهيرأو حتى ذكر معلومات عنها ، ومن أشهرها: محاولة الكثير من الكتاب والمؤلفين الكتابة عن شخصية "ابن رومي" وتبعات ما حدث لهم نتيجة ذلك، ومنهم الكاتب الكبير "العقاد" عندما حاول وتحدى هذه اللعنة التي عرفت عن "ابن الرومي"، والتي تصيب كل من يحاول أن يكتب عنه، وكأنه رافض كل الرفض أن يسرد أحد أي شيء عنه!

ولقد تحير كثيرًا العقاد وحاول ألا يربط بين الحوادث التي تحدث له منذ شروعه في الكتابة عن "ابن رومي" وبين تلك اللعنة التي حاول ألا يصدقها!

وبحثت أكثر عن هذه الحادثة لكي أعرف معلومات أكثر دقة، فوجدت أن العقاد حكم عليه بالسجن تسعة أشهر بعد فراغه من تأليفه، وكُسرت ساق المازني بعد أن كتب فصولًا عن "ابن الرومي "، ولما كتب كامل الكيلاني عن دواوين "ابن الرومي" أصيب بالروماتيزم وتوفي ولده!

تساءلت: هل هذا حقيقي؟ لم أكن أسمع عن تلك الأشياء، هل الشخصية التي سأجسدها في الفيلم لها لعنة ومن الممكن أن تصيبني، هل تشعر الشخصية بأن هناك من سيجسدها ويحكي عنها للناس فتصب عليه لعنات مريرة لتمنع ذلك؟ أم هذه كلها مجرد مصادفات!

وقفت في الشرفة لأحسم أمري، هل سأقبل الدور وأنزع عني الخرافات أم أعتذر وأبتعد عن الشر وأغني له؟

نظرت إلى السماء متأملًا وقلت بمزاح: هل ستغضب مني يا بطل العمل إن جسدت دورك؟ سأنقل للناس كيف كانت حياتك وبطولاتك؟ ما الذي يمكن أن يغضبك في هذا؟

أيمكن أن تريد الاحتفاظ بحياتك بعيدًا عن عيون الناس؟ أتريد ألا تكون حياتك للعرض؟

فكرت طويلًا حتى زادت عليَّ برودة الشتاء ولم أكن قادرًا على الوقوف بالشرفة أكثر من ذلك، فدخلت للحجرة وأخذت أبحث عن حوادث سابقة لتلك اللعنة الغريبة، فوجدت الكثير من الحوادث المشابهة!

وبعد وقت وتفكير طويل قررت أن أتحدى هذا الهاجس وألا أضيع هذه الفرصة الذهبية مني.

جاء موعد التصوير لأبدأ في تصوير أول المشاهد في الصحراء، قابلتنا صعوبات حقيقية وتغلبنا عليها جميعها. كنت في شدة التفاؤل محاولًا ألا ألتفت لأي فكرة سلبية في عقلي. وبالفعل مر أول يوم بخير وسلام، وأيضًا اليوم الثاني والثالث والرابع، وشعرت أنني كنت سأخسر دورًا عظيمًا بسبب أوهام لا أساس لها من الصحة.

وجاء اليوم الخامس الذي أعاد الشكوك لي عندما حدثت مشكلة بيني وبين المخرج وصمم كل منا على رؤيته ورأيه، واختلفنا، ولكن أقنعت نفسي أنه مجرد اختلاف آراء، فتنازلت عن رأيي طوعًا حتى نستكمل المشروع الذي بدأناه. واستمرت عملية التصوير حتى جاء صوت يصرخ وينبهنا عن تعطل الكاميرات فجأة وبدون أي مقدمات. تعجبت قليلًا، لكن لم أعط المشكلة أكبر من حيزها حيث تم إصلاح الكاميرات واستأنفنا العمل من جديد.

انهمكت في تجسيد الشخصية واجتهدت لأثبت مواهبي التمثيلية، ولكن فجأة نشب حريق بأحد الكرفانات أيضًا دون مقدمات، ووجدت الخوف والهلع يسيطر على من حولي. وهنا أيقنت أن هناك أمرًا غير طبيعي، والأمر لم يعد مصادفة، هل صب عليَّ البطل جامات غضبه ليوقف عرض قصة حياته؟

عم الهدوء والسكينة على طاقم العمل بعد السيطرة على الحريق وإطفائه، واستأنفنا العمل من جديد.

ولسوء الحظ واجهت في كل يوم العديد من العراقيل التي تجعلني أتراجع وأرغب في الانسحاب من العمل حتى أتجنب اللعنات والشكوك التي تساورني.

وفي آخر المطاف كدت أنسحب حتى جلست مع أحد الزملاء في العمل، والذي كان سعيدًا بدوره وممتنا لاشتراكه في هذا العمل الكبير؛ كونه لم تعرض عليه أدوار مغرية أو مجدية الفترة الأخيرة، وحاول أن ينبهني لشيء لم يكن في الحسبان وكشف لي كل ما في صدره.

فجأة وجدته يصارحني ويقول لي إنه عرف أن هناك من يدبر كل هذه الحوادث من أجل إفساد العمل وإبعادي عن دور البطولة، وأن هذا المدبر هو ممثل كبير يضع نصب عينه الدور، ويريد أن يكون هو البطل، وهو يفعل أي شيء من أجل أن أنسحب ويذهب الدور له.

من بداية العمل وهو يريد أن يبعد كل من يقوم بدور البطولة ويفسد عليه العمل بتدبير الحوادث والمؤامرات، وهو أيضًا من زرع فكرة لعنة تجسيد المشاهير في عقل من سبق أن شاركوا في العمل، وجعلهم ينسحبون خوفًا من اللعنة المزعومة.

لم يكن يعجبني في حديثه أكثر من فرحتي التي طمأنت قلبي وجعلتني أصر على أن أكمل الدور، وألا أجعل الحاسدين قادرين على إبعادي عن عملي ومشروعي. شكرت بشدة زميلي وتأكدت مما قال ووجدت أن حديثه مقنع وكلامه منطقي.

من البداية كنت أشعر أن هذا هراء ليس أكثر.

وقررت من بعدها أن أتجاهل أي شيء يحدث، وأن أكون أكثر مرونة، وأن أقابل أي صعوبة بصدر رحب وروح مرنة. وبالفعل أتممت العمل أخيرًا.

حقق العمل نجاحًا غير مسبوق، وظللت فترة أستمتع بنتائج نجاحي وإشادات الجمهور والنقاد، حتى ظهر زميلي من جديد الذي كان قد كشف لي الأمر وأسدى لي معروفًا.

ظننته في البداية جاءني لكي يبارك لي على العمل ونحتفل معًا بنجاحه، ولكن كشف لي أنه يريد أن يفصح لي عن سر ويريد أن أسامحه؛ صارحني بأن قصة الممثل المنافس لم تكن حقيقية وهي فقط من وحي خياله.

تسمرت عيناي نحوه ولم أنطق بحرف منتظرًا أن يكمل حديثه ويوضح ما قاله؛ فاستطرد حديثه وأوضح لي أنه كان يخاف أن أنسحب ويفشل العمل بعدما شاع عن الفيلم أنه مصاب باللعنة، ولن يرضى أي ممثل آخر العمل به بعدي؛ بسبب أن كل من يأتي ليأخذ الدور ينسحب سريعًا، فخاف أن يفشل العمل وينسحب الجميع بينما هو كان في أشد الحاجة لذلك الدور الذي أخيرًا ناله بعد فترة من النسيان والجلوس بدون عمل.

حاول أن يكرر اعتذاره عن كذبته، وأخذ يبرر أن ما جعله يفعل هذا حبه للعمل وخوفه أن تذهب فرصته، فقرر أن يدافع عن فرصته بأي طريقة ولم يكن يهمه لعنة أو أي شيء. كل ما كان يهمه النجاح لأن هذا الدور سوف يقدمه كممثل بشكل جديد، ويفتح له أبواب الترشيحات من المخرجين، وسوف يعود بقوة للفن مثلما تمنى.

لم يكن يهمني تبريراته أو دوافعه لفعل ذلك، فقط سألته: هل تقصد أن كل ما حدث لي أو لغيري من الممثلين الذين ترشحوا للدور قبلي ليس من تدبير أحد أو منافس كما قلت؟ أتقصد أنها لعنة فعلًا؟

قال بخجل: لا أعرف، ولم يكن يهمني أن أعرف، لكننا أتممنا العمل بحمد الله بل حقق العمل نجاحًا ورواجًا كبيرًا، أين اللعنة؟ كلها حوادث عادية يمكن أن تحدث لأي شخص، الأمر كله مصادفة، لا تضع في عقلك ذلك الهراء.

بينما أنا أتطلع فيه بذهول رن الهاتف، فوجدت المخرج يقول لي: ألا تعرف ما حدث؟ فقلت له: خير!

قال لي: لقد قررت هيئة الرقابة أن تنزع الفيلم من دور السينمات لأنهم اعترضوا على بعض المشاهد، يا للحظ بعد كل هذا الجهد والـ...

أغلقت الخط لأنني شعرت بالدوار ولم أكن قادرًا على الكلام، فقط علمت أنني الآن أجني ثمار اللعنة مثلما تلقاها غيري قديمًا، هل هو مجرد حظ عاثر أم هي حقًّا لعنة تجسيد المشاهير؟!

روبابيكيا!

كانت جدتي سيدة من الزمن الجميل، كنت أنظر إليها وهي تجلس في الشرفة مستمعة للأغاني القديمة التي لها مذاق خاص، كانت تحب أغاني الست وترددها بكل دلال وكأنها تريد أن تسترجع الزمن ذاته بكل لحظاته الحلوة والمرة.

كان حنينها للماضي يظهر ويضوي في عينيها عندما تتحدث عن زمان وأيامه، كنت أحب حكاياتها وقصصها الذي تملأ المكان من حولي بعبق الذكريات، تنثر حولي أحداثًا وشخصيات وخبرات، تجعلني أعيش في الماضي وكأن حكايات جدتي هي آلة الزمن التي تسحبني إلى واقع جديد.

كانت تروي لي عن والديها وعما توارثته عنهم، لم ترد التخلي عن أفكارهم أبدًا، كانت التقاليد والعادات الموروثة كقدس الأقداس، لا يستطيع أحد المساس بها أو تغييرها أو حتى مناقشتها. كانت تعتبرها كنزها الذي ورثته عن الأجداد والذي يجب أيضًا أن تهبها لمن بعدها.

هل كانت تظن أن هذه الأفكار تناسب كل الأجيال؟ هل تصلح لتطبيقها في كل الظروف والبيئات والمجتمعات؟ الزمن تغير ومات الأجداد والآن زمن الأحفاد، الزمن الذي يتغير بسرعة غير محدودة، لا تكاد تغلق هاتفك وتفتحه بعد دقيقة لتجد سيلًا من الإشعارات الجديدة يهاجمك ليعلمك بكل ما حدث خلال غيابك عن الإنترنت، أثناء تلك الدقيقة.

لم تكن جدتي تؤمن بذلك قط، هي فقط موجودة بجسدها في عصرنا، ولكن عقلها لم يكن قادرًا على المواكبة، لا أعلم إن كانت غير قادرة أم لم ترد أن تواكب عصرنا لتظل قابعة في زمنها المحبب بكل تفاصيله المحببة لقلبها.

أما أنا فكنت أقدس كل أحاديث جدتي، أعتبرها تاريخًا وثروة قومية يجب عدم التنازل عنها أبدًا، وذلك لأن جدتي نجحت في جذبي لكل ما هو عتيق وتراثي، شعرت معها أنني أريد أن أنتمي لهذا الزمن معها، كنت أعرف أن جدتي مرت بالكثير، ولديها خبرات تجعل الحكمة تنبعث من فمها محتكمة إلى المثل القائل: "أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة".

حتى جاء العريس ودق الباب، لم أكن أعرفه جيدًا، فلقد كانت الخطبة تقليدية "زواج صالونات"، كنت أريد أن أختار شريكًا أحبه أو على الأقل أعرفه، لكن جاء ذلك العريس سابقًا لكل التوقعات والآمال! لم أكن أعلم ماذا أفعل، أوافق أم أرفض؟ فالزواج قرار مصيري يجب عدم المجازفة به. حينها رجعت لجدتي التي أثق في رأيها كثيرًا وأعرف أنها ستهديني للقرار المناسب.

في حقيقة الأمر لم أكن مستريحة لشخصية ذلك العريس، شعرت بعدة اختلافات تفرق بيننا، ولكن قلت في نفسي: بالطبع جدتي لديها وجهة نظر صحيحة، أما هي فقد نصحتني أن أقبل ذلك الشريك، لم أعرف لماذا نصحتني بذلك، لكني أعلم أنني أخذت بنصيحتها دون تفكير أو دراية، زادت الخلافات بيني وبين خطيبي، لم نكن متوافقين فكريًّا، ولم تكن فترة خطبتي فترة سعيدة كما هو متعارف عليها لدى كل الفتيات.

مرضت جدتي مرضًا شديدًا حتى انتقلت إلى المستشفى لخطورة حالتها، حزنت بشدة لأنني عرفت أن تلك اللحظات الأخيرة. إنني أحبها كثيرًا، سأفتقدها، سأفتقد حكاياتها وزمنها الجميل، من سينصحني؟ من سيهون عليَّ أمور الحياة الصعبة؟

كان حزني مضاعفًا؛ جدتي تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأيضًا حياتي غير سعيدة مع خطيبي وزوجي المنتظر، تجرأت وحاولت أن أسألها عن رأيها في قرار حاولت أن أتخذه ولم يكن لديَّ الجرأة أن أقوم به وحدي.

سألتني جدتي عن خطيبي وكأنها تريد أن تتفقدني رغم ألمها ومرضها، صرحت لها بما في قلبي: أريد أن أفسخ هذه الخطبة يا جدتي، أنا غير مرتاحة أبدًا ولست سعيدة، أنا لا أطيقه. كيف سأتزوجه؟

قالت جدتي بصوت خافت: يا بنيتي، لا أحد يقدر أن يناطح النصيب، هذا نصيبك، كوني راضية وشاكرة، في زمننا لم نكن نختار ولا نجرؤ على أن نرفض أو نقبل، نقبل حياتنا ونتأقلم.

قلت لها: وهل كنتِ راضية شاكرة؟

قالت: لا يهم، انقضى العمر والآن لديَّ حفيدة جميلة كنت أود أن أحضر عرسها، ولكن كما قلت لكِ، لا يمكن أن نختار كل شيء حسب هوانا! تزوجيه يا بنيتي، هذا نصيبك.

قالتها وماتت جدتي، ماتت جدتي وماتت فرحتي أيضًا، ومن ثم بدأت تعاستي التي اخترتها بمحض إرادتي.

قبلت الزواج من ذلك الشخص الذي لم أكن أطيقه وتحولت حياتي لجحيم، نفذت ما قالته لي جدتي التي ماتت وارتاحت من مرار الدنيا، وتركتني أنا أعاني مر نصيحتها الذي قلبت حياتي رأسًا على عقب.

المرار هو أن تجعل الآخرين يختارون لك بينما أنت تتحمل النتائج، المرار هو أن تخلط بين القرارات والولاء للآخرين، المرار هو أن تقدس كل ما هو قديم وعتيق، وتعتقد أنها مسلمات غير قابلة للنقاش أو للتغيير.

كانت جدتي من زمن به كثير من القيود، تأقلمت مع عصرها وورثت معتقدات وأرادت أن تورثها لمن بعدها. يجب أن نميز بين القديم القيم الذي يجب أن نحافظ عليه وبين القديم الذي لم يعد يصلح لعصرنا هذا، أحيانًا يكون الجديد أقيم وأثمن، وأحيانًا يكون القديم قيمًا وذا قيمة، ودورنا أن نميز، دورنا أن نختار ما يناسبنا. لم تكن جدتي تعلم أن ليس كل ما هو قديم قيم، هناك أشياء تظل أنتيكات وتحفظ في المتاحف، وهناك أشياء تعطى للروبابيكيا!

عم أسماعيل عدو المرأة!

كنت أذهب يوميًّا إلى عملي صباحًا أستنشق الهواء المملوء بروائح الساندوتشات ووجبات الطلاب، يطرب أذني ثرثرات الأطفال صباحًا في بداية اليوم الدراسي، اعتدت الطابور الصباحي وصوت الإذاعة المدرسية، اعتدت صيحات التلامذة في تحية العلم، هذه معالم يومي المتعاد المتكرر بدون أي تغيير.

أنا أعمل كمعلمة في مدرسة إعدادية للبنات، لم أكن أحب عملي كثيرًا في البداية، لكن مع مرور الوقت شعرت أنني مرتاحة له؛ في الحقيقة لا أعلم أذا كان ذلك شعور ارتياح أم شعور اعتياد أم خوف من التغيير!

كنت أحب القراءة حبًّا جمًّا، أشعر بأنني أنتمي لها وهي تنتمي لي.

كان لدى والدي مكتبة كبيرة تضم أعظم كتب لكتاب العصر والعصور القديمة، ولا عجب أن والدي كان موظفًا بسيطًا يعمل في مؤسسة حكومية، لم يكن عالمًا أو سياسيًّا أو إعلاميًّا حتى يكون لديه ذلك الكم الهائل من الكتب. كان يحب القراءة والاطلاع، كان يقرأ بنهم كل يوم بعد ما يأتي من العمل ويجلس بالشرفة ممسكًا بكتاب يدس فيه رأسه بينما هو في انتظار أمي لتعد الغداء. كان يشعر أن تلك هي تسليته ووقته المحبب. يسافر مع الكتب ويندمج مع الأحداث، لا يستيقظ إلا على صوت أمي لتدعوه لتناول الطعام.

كان هذا الجيل يحب القراءة ويحب الثقافة ويقدر الذوق والفن. فكرت مرارًا في الأسباب التي جعلت هذا الزمن أحلى وأرقى وأكثر رونقًا رغم قلة التكنولوجيا والإمكانيات، تساءلت لماذا تدنى الذوق وأصبحت الثقافة قاصرة على من يعمل في مجالات خاصة بها؟

هل كان لديهم متسع من الوقت، فالموظفون كانوا ينتهوا من عملهم الساعة الواحدة ظهرًا، ثم يذهبون لبيوتهم وأمامهم متسع من الوقت ليقرءُوا ويتسامروا ويتناقشوا، كان هذا الزمن مليئًا بالبركة في كل شيء حتى الوقت كان به بركة! هل لأن الحياة كانت أبسط؟ هل لأنه لم تكن الفجوة بين الطبقات قد اتسعت بهذه الطريقة الفاحشة التي وصلنا إليها اليوم؟ هل لأنه كان تركيز الأعلام على الأدباء والعلماء والمثقفين ولم يكن يسلط الضوء على من لا يستحقون كما يحدث حاليًّا؟

لم أتوصل للإجابة، ولكن كل ما أعرفه أنني ورثت حب القراءة عن والدي وكنت أعتز جدًّا بمكتبته التي كنت أنكب على كتبها باستمرار.

كان ضمن روتين يومي المعتاد أن أرى عم إسماعيل، الذي يعمل حارسًا للمدرسة، يتعدى على المرأة والبنات بقوله بعض العبارات التي تستنكر دور المرأة في الحياة، بل زاد الطين بلة عندما يفتح فاه ويقول إن وجودها سبب لتعاسة البشرية وإنها أصل الشر، لم أكن أتيقن إن كان يقول ذلك الكلام المهين ليردده لنفسه أم ليستفز الطالبات والمعلمات أم مجرد مزاح ليس أكثر!

كان عم إسماعيل رجلًا بسيطًا يعيش في غرفة صغيرة في طرف المدرسة، يقوم بعمله على أكمل وجه، لم يقصر أبدًا في إتمام واجباته، والغريب في الأمر أنه كان محبوبًا جدًّا من المعلمات والطالبات رغم كل ما ينالنا من لسانه الفظ وأقواله المنبوذة عن المرأة.

فهو كان يلقي باللوم على نساء العالم كله، وفي نفس الوقت يلقي كلامه بابتسامة ساحرة لرجل ذي قلب طيب، كان رجلًا عجوزًا ووقورًا، لم يكن لديه أسرة ولم نعرف له قط أسرة أو أبناء.

لم نأخذ سخافات عم إسماعيل على محمل الجد، كنا نضحك عندما يهجو المرأة ويصفها بكل الشيم البغيضة، أطلقنا عليه لقب "عدو المرأة"، لم نعلم في حقيقة الأمر سرعداوته الكبيرة مع المرأة، أو أي حدث في حياته يفسر اعتقاداته الغريبة التي تحقر شأن المرأة، ماذا قابل في حياته حتى يبغض المرأة كل هذا البغض؟

ومن طرفة القدر أن يكون هو بالذات حارسًا لمدرسة بها المئات من البنات والمعلمات، مدرسة للبنات، ما أعجب القدر!

قرأت كثيرًا عن أعداء المرأة في تاريخ الأدباء والشعراء، قرأت عن "العقاد" الذي لم يكن يكتب عن المرأة أبدًا بطريقة منصفة؛ كان يعتبرها كائنًا أدنى من الرجل، ويصفها بأنها غير مساوية للرجل في الذكاء أو المواهب، كان يرى أنها تحب الرجل الذي يكبح حريتها ويسجنها، كان يرى أنها تعبد القيود والأغلال.

أما الفيلسوف المتشائم "شوبنهاور" فقال إن المرأة إنسان ناقص أشبه ما يكون بالطفل، وبحكم طبيعتها يجب أن تطيع، مؤكدًا أن الرجال بطبيعتهم غير مبالين ببعضهم البعض، ولكن النساء بطبيعتهن متنافسات، أعداء لبعضهن، وأن كل حواء تعادي كل شيء أنثوي، وأن المرأة هو فخ نصبته الطبيعة للإيقاع بالرجل.

وما أدراك بالذي قاله "نيتشه" الفيلسوف الألماني في كتابه هكذا تكلم زرادشت: "لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة، فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفورًا، وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة، إذا ذهبت إلى المرأة فلا تنسَ السوط ". وكان يرى أن المرأة ملكية ينبغي معاملتها كقطعة تباع.

أما "أرسطو" فلم تكن المرأة تصلح في نظره إلا للإنجاب.

وهناك غيرهم كثير ممن تطاول على المرأة رغم العظمة والمكانة التي وصلوا لها، لم يكنوا أي احترام لمكانة المرأة. إن بحثنا في أحوال حياتهم نعرف جيدًا ما عانوه من مشكلات أسرية مع أم أو أخت أو حبيبة أو زوجة؛ فنعرف السر وراء كل ذلك البغض للمرأة.

وتذكرت أيضًا قول الأديب الكبير نجيب محفوظ: "المستهين بقدرات النساء أتمنى أن تعاد له طفولته بدون أم".

كنت أضحك على نفسي عندما أقارن هؤلاء الفلاسفة مع عم إسماعيل الرجل البسيط الذي ليس لديه أي فلسفة أو علم يحاجج به أو يستند عليه في تعديه على المرأة. هل الرجل هو الرجل؟ هل الفيلسوف يستوي مع الإنسان البسيط في معتقداته؟

قررت في يوم ما أن أتحدث إلى "عم إسماعيل" وطلبت منه أن يحضر لي كوبًا من الشاي، وجلست بجوار غرفته في المدرسة أثناء الفسحة المدرسية.

افتتحت الحديث معه في مودة وقلت له: لماذا يا عم إسماعيل كل هذا الكم من الكره غير المبرر للنساء؟ من تلك المرأة التي جعلتك تكره كل النساء؟!

ابتسم عم إسماعيل ابتسامة خفيفة وقال: هل تقولين ذلك لأنك تسمعنني أداعب الطالبات وأقول لهن إن المرأة هي أصل كل الشرور والمصائب في الدنيا؟ لا أكره النساء سيدتي! أنا لا أعرفهن.

تعجبت وقلت: لا تعرفهن! كيف؟ أنت تتحدث عن المرأة وكأنك عانيت منها كثيرًا وكانت سبب لنكبات حياتك.

قال بثقة: لم أختبر وجود المرأة في حياتي لأعرف إذا كانت ستسبب لي النكبات أم لا؟ ويمكن أن تكون تلك هي النكبة الحقيقية لي.

أنا يا أستاذة ولدتني أمي ثم ماتت في نفس يوم مجيئي للحياة، لم أختبر وجود أم تحبني وترعاني وتحنو عليَّ، لا أعرف ماذا تعني كلمة "أمي"، لم أذق اهتمام ودلال الأم لابنها، وكذلك لم تتيسر لي الظروف للزواج، لم يكن لي زوجة تهتم لأمري وتشاركني الحياة، أيا كانت الأسباب ولكن، ها أنا إنسان وحيد في الدنيا، ليس لديَّ ابنة أدللها أو أقسو حتى عليها، وبالتالي لم أعرف من هي المرأة في الحقيقة، ولم أهتم كثيرًا أن أعرف الحقيقة.

سألته: هل أنت متأثرا بآراء ناس أخرى عن المرأة مثلًا؟

هل تعرف يا عم إسماعيل أن الذي تقوله هذا، قالوه كثير من الفلاسفة والكتَّاب عن المرأة! يا لك من فيلسوف متنكر في هذه الغرفة الصغيرة وتتدعي أنك "عم إسماعيل".

ضحك عم إسماعيل: يا أستاذة أنا أجهل القراءة والكتابة، أنا رجل بسيط كما تعرفين، ولكن يا أستاذة لماذا قال هؤلاء الناس عن المرأة مثلي؟ فهم لديهم من العلم والقدر والمكانة نصيب كبير، على خلافي أنا الرجل الذي لم يملك شيئًا ولا يعرف شيئًا.

وجدت في سؤال "عم إسماعيل" فلسفة كبيرة – ربما يملكها دون أن يعي – فشرحت له بطريقة مبسطة أن هناك من عانى من أمه مثل "شوبنهاور"، أو من عانى من أخته مثل "نابليون"، أو عانى من حبيبته مثل "نيتشه". بالطبع لم أذكر له أسماء هؤلاء، ولكن فقط ذكرت له الأسباب التي جعلتهم أعداء المرأة.

قال لي: إذن أنا فهمت لماذا أنا أقول مثلهم، هم لديهم أسباب، أما أنا فلم أختبر وجود المرأة في حياتي، فترفعت عنها بأنني أدعي أنني كاره للمرأة ولا أحتاجها، كمن يحتاج لشيء ضروري، ولكنه يترفع عنه ويتظاهر أنه غير مكترث حتى لا يثير الشفقة.

تعجبت من كلام عم إسماعيل، إنه يقول كلامًا لا يمكن أن يصدر من رجل بسيط مثله، لولا أنني أعرف جيدًا من هو، لشككت في هويته.

أحيانًا تكمن الفلسفات في ألباب البسطاء كما تخرج الحكمة من أفواه المجانين، كما يقال!

على مسئوليتك الخاصة![1]

"كل أسرار العالم موجودة في الكتب، فلتقرأ على مسئوليتك الخاصة".

دانيال هاندلر

كنت أسلي أيام غربتي بين العمل والقراءة، فبعد انقضاء ساعات العمل، أذهب قاصدًا المكتبة العامة للقراءة وقضاء عدة ساعات في قراءة الكتب التي تمهلني الصبر على فراق أهلي وأصدقائي. اتخذت القراءة صديقًا لي وسط دروب الغربة، ومن شدة عشقي لها كنت أنسى نفسي غارقًا بين الكتب لساعات حتى تأتي المسئولة لتنبهني أن موعد الإغلاق قد حان وعليَّ أن أغادر المكتبة.

يومي يمر ببطء، ولا أشعر بمذاق الراحة إلا وأنا بين الكتب، فأشعر أن ذلك وقتي الخاص ومتعتي المنتظرة في كل يوم، بينما أنا أتفحص الكتب مثل كل مرة لأختار كتابًا جديدًا أنسى وحدتي به، لفت أنظاري عنوان غريب لكتاب، "الكتاب المميت". ظننت أنه كتاب من أنواع الرعب والإثارة أو شيء قريب من ذلك، ولكن فضولي دفعني إلى أن أمسكه وأقلب صفحاته لأعرف عما يحكي. لم يكن الأمر سهلًا ولم أعرف في وقتها عن ماذا يتحدث الكتاب. فقررت أن آخذه وأجلس لأقرأه ليكون هو الكتاب الذي وقع عليه الاختيار هذه المرة حتى لو كان من نوعية غير معتاد على قراءتها.

فتحت أول صفحة وبدأت القراءة فيه بشغف وفضول لأعرف قصته حتى تفاجأت بأول جملة في الكتاب **"يعتبر كتاب "الظلال من جدران الموت" أخطر كتاب في العالم على الإطلاق، وقد تم تأليفه سنة 1863، وتكمن خطورته في كونه يسبب الموت بشكل مباشر لكل من قرأه أو حاول قراءته".**

---

1 - الكتاب المميت حقيقي، والنسخة الأصلية بالفعل موجودة في ولاية ميتشيغان ، لكن قصتنا من وحي الخيال .

من هو مؤلف الكتاب؟

هو روبرت كيدزي، وهو أستاذ في علم الكيمياء ولد سنة 1823 وتوفي سنة 1902. حاصل على شهادتين في الكيمياء والطب، وشغل منصب طبيب لمدة 11 عامًا، كما عمل جراحًا خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وعندما بلغ أربعين عامًا عمل أستاذًا للكيمياء في كلية الزراعة بولاية ميتشيغان، وكانت له عدة إنجازات، كما كان يطلق عليه لقب "أبو صناعة سكر البنجر" في ولاية ميتشيغان.

الغريب والمختلف عن بقية الكتب الأخرى أنه بعد صفحة العنوان والمقدمة التي دوَّنها كيدزي لا توجد أي كلمات أخرى، حيث إن كل صفحاته التي تبلغ 86 صفحة ليست سوى ورق حائط، قام كيدزي بجمعها من ورق الحائط المنتشرة في أمريكا في ذلك الوقت. لكن الخطر في الأمر أن كل هذه الصفحات مطلية بمادة الزرنيخ المميت، وهي مادة شديدة السمية.

لماذا فعل روبرت ما فعله في كتابه؟

كان كيدزي يهتم بالبيئة وتأثير المواد الملوثة السامة على صحة الإنسان، ومن بين دراساته كانت دراسة تؤكد خطورة تزيين جدران البيوت بورق الحائط الملون الذي كان منتشرًا في الولايات المتحدة في سنة 1739. وقد أثبت كيدزي أن ورق الحائط يضم معدلات خطيرة من الزرنيخ الذي يصبغ به ورق الحائط، حيث إن الزرنيخ ينتقل عبر جسيمات إلى الهواء، ثم يستنشقه الإنسان مما يسبب له التهابًا في الشعب الهوائية والصداع وفقدان الوزن ثم الوفاة في النهاية.
لكن لم ينتبه أحد لصيحات كيدزي، ففكر في هذه الطريقة القاتلة حيث جمع عينات من ورق الحائط التي تحتوي على معدلات عالية من الزرنيخ، ووضعها في 100 كتاب، ووزعها على المكتبات في الولايات المتحدة.

صدمت من تلك الجملة، ولكن انتابني الفضول أكثر لأعرف القصة كاملة، وبدأت بالفعل في متابعة بقية الصفحات بنهم شديد حتى أيقنت أن النسخة الأصلية لهذا الكتاب موجودة هنا في نفس المكتبة التي أتواجد فيها كل يوم. فقررت أن أسأل المشرفة المسئولة عن المكتبة عن الكتاب وقصته الغريبة التي قرأت عنها.

فشرحت لي عن قصة الكتاب وعن السبب الحقيقي وراء موت من يقرأه؛ وأن السبب الذي يجعل الكتاب يقتل كل من يقرأه هو أن مؤلف الكتاب وضع نسبة قاتلة من نوع السم الذي يعرف بالزرنيخ على غلاف هذا الكتاب وصفحاته كلها التي تصل إلى 86 صفحة. فكل من مس أو شم الزرنيخ سيموت مباشرة.

وبعد أن تم اكتشاف هذا السر الذي حير الباحثين تم الاتفاق على أنه من الممكن الآن قراءة الكتاب بعد وضع قفازات وقناع واقٍ للوجه تفاديًا لخطر الموت. والجدير بالذكر أنه لا يوجد من هذا الكتاب سوى نسختين في العالم، واحدة منها موجودة هنا في مكتبتنا .

فأكدت لها أنني قرأت هذه المعلومات في الكتاب وسألتها: هل يمكن الاطلاع على النسخة الأصلية؟

فأجابت: بالتأكيد، لكن يمنع الاقتراب منه أو لمسه إلا بعد اتباع خطوات السلامة لحماية القارئ من الموت. وأيضًا على مسئوليتك الخاصة إذا حدث أي شيء.

ترددت قليلًا من كلامها، بلعت ريقي واستجمعت شجاعتي، وتعجبت من أن يكون كتابًا عاديًّا بمثل هذه الخطورة.

فقلت لها: هل يمكن أن أطلع عليه؟

قالت: بالطبع لكن عليك أولًا اتباع الخطوات وأخذ التصريح وسوف تراه بنفسك.

فوافقت واتبعت الإجراءات اللازمة وارتديت القناع والقفازات التي تحميني من أي خطر. ودخلت إلى غرفة منفصلة عن المكتبة مع المشرفة. فتحت خزانة وأخرجت الكتاب الذي كان مغلفًا داخل صندوق زجاجي وأطلعتني عليه. وفتحت الصندوق الزجاجي وجعلتني أتصفحه بنفسي بكل حرص.

تعجبت جدًّا من هذا الكتاب وأخذت أقلب بين صفحاته حتى نبهتني المشرفة أنه يجب علينا أن نعود للخارج، فأعطيتها الكتاب وخرجنا. ونصحتني أن أكمل قراءة وبحثًا عن معلومات أكثر عن الكتاب.

شكرتها وخرجت من المكتبة متعجبًا من أمر هذا الكتاب، ولكنني نسيت الأمر وعدت للبيت وأتممت مهامي اليومية ومر اليوم بسلام، وقبل أن أنام جلست بجانب شرفتي المطلة على الشارع بينما أتصفح التليفون في يدي وأتابع الأخبار كما اعتدت قبل النوم، وجدت أن العالم كله يتحدث عن "كورونا" الفيروس الجديد، لم أكن أريد أن أسمع أي شيء أو معلومات جديدة عن أي أشياء أخرى، يكفي اليوم ما استكشفته بخصوص الكتاب المميت، كان الموضوع يشغل بالي وعقلي كلية.

واستيقظت في اليوم التالي من سريري، ولكن وجدت نفسي غير قادر على أخذ نفسي بسهولة وغير قادر على أن أتحرك من مكاني. ظننت أنه إرهاق طبيعي، ولكن زاد الإعياء عليَّ حتى منعني من النهوض من مكاني لساعات، وبدأت أشعر بدوار وكحة شديدة، ظلت حالتي تتفاقم وتزداد سوءًا حتى قفزت من مكاني من شدة خوفي: هل هذا أثر الكتاب المميت؟ هل تسربت إليَّ المادة السامة أو لمستها أو استنشقتها عن طريق الخطأ؟ هل سأموت الآن؟

بدأ الخوف ينال مني ولم تكن حالتي تتحسن حتى أيقنت أن الكتاب المميت هو السبب وأنني كان يجب عليَّ ألا أطلع عليه. وكلمت زميلي في العمل حتى يأخذني إلى أقرب مركز صحي لأبلغهم بأمر الكتاب وأعرف إن كان من الممكن أن ينقذوني وينزعوا من جسمي آثار السم.

بالفعل جاء صديقي وأخذني بسرعة إلى المستشفى وهناك تم الكشف عليَّ، وعرف الطبيب مني قصة الكتاب وتعجب مما أقول.

وأمر بعزلي فورًا في مكان لوحدي وكتب لي كثير من الأدوية، وطلب من زميلي الذي جاء بي أن يجري فحصًا بسيطًا حتى لا يكون انتقلت له العدوى.

فسألت الطبيب: عدوى! هل السم معدٍ؟

فابتسم الطبيب: لا علاقة للسم بك، أنت كنت اليوم بالمكتبة؟

قلت: نعم.

قال: أنت أصبت بالكورونا، الفيروس الجديد على العالم، والذي بدأ أن ينتشر في العالم كله، ومن الواضح أنك أصبت بسبب وجودك في المكتبة اليوم لأن حالات عديدة جاءتنا من هناك، وعلى ما أعتقد أنها تم إغلاقها اليوم حتى لا تنتقل العدوى لآخرين.

قلت بعجب: كورونا! هذا يعني أنني غير مصاب بسم من الكتاب المميت!

الطبيب: هناك فيروس جديد يهدد العالم أصعب من كتابك المميت الذي تتحدث عنه، لم يمر على اكتشافه شهران حتى بدأ في التوسع.

لا تقلق، الأعراض ليست قوية لديك، وسوف تتعافى بسرعة، مناعتك جيدة إلى حد معقول.

أما عن أمر الكتاب المميت، فلم يفعل بك شيئًا، إنما من المحتمل أنك أمسكت كتابًا موبوءًا آخر نقل لك عدوى الكورونا، ربما أمسكه شخص مصاب أو جاء عليه رذاذ متطاير، وأمسكت أنت ذلك الكتاب، في الحالتين لم أكن أعرف أن الكتب بهذه الخطورة!

الماضي ليس باهتًا!

"الشتاء بارد على من لا يملكون الذكريات الدافئة".

فيودور دوستويفسكي

كانت فرحتنا عارمة واستقبالنا لجدتي في منتهى الترحاب، سوف تقضي لدينا جدتي العطلة الصيفية كعادتها كل عام. نفرح كثيرًا بوجودها معنا، نشعر ببركة وصفاء يعمان البيت. نستمتع بقصصها عن الزمن الجميل، ونستعيد معها ذكرياتها التي تعتبرها كل ما بقي لها في الحياة لتقول دومًا: "ذكرياتي الجميلة هي ما أعيش عليه الآن، لا شيء جميل مثل لحظاتي الغالية التي ما زلت أحتفظ بها في عقلي وأسترجعها وأرددها لنفسي كلما سنحت الفرصة".

كانت جدتي تتمتع بصحة جيدة، فتقضي وقتها مع أمي في المطبخ لتعد لنا أشهى الأكلات التي ننتظرها بفارغ الصبر لنستمتع بالمذاق الطيب. وبعد انتهاء الغداء تأتي فترة الالتفاف حول جدتي في الشرفة؛ لنسمع منها حكاية من حكاياتها التي عاشتها في حياتها في الزمن الجميل.

كان أسلوب سردها للماضي شائق وشهي للأذن، لدرجة أنك تشعر في الرغبة في طلب المزيد من الحكايات! تارة تحكي لنا عن سفرها مع جدي في بلدان كثيرة حسب مقر عمله، وتارة تحكي لنا عن جاراتها صديقاتها وعن المواقف المضحكة بينهن. أيضًا تحكي لنا عن والدتنا وهي صغيرة وكيف كانت تتصرف في مرحلة الطفولة.

كانت تجري أيام العطلة سريعًا ونستعد للدراسة، فتستعد جدتي للرحيل لتعود لبيتها وتتركنا نتنبه لدروسنا وللدراسة والمدارس حتى نودعها بالدموع ونتشوق للإجازة القادمة التي سنسعد بوجودها معنا من جديد.

وفي إحدى الأيام رأيت جدتي تشاهد الأفلام القديمة (الأبيض والأسود) والشوق واللهفة يتملكان ملامحها وتقاسيم وجهها، كانت تحب كثيرًا مشاهدة أفلام الزمن القديم بينما نحن ننفر من مشاهدتها ونتأفف غير راضين أن نشاركها المشاهدة على تلك الأفلام؛ فنحن نريد الأفلام الجديدة للأبطال الذين نعرفهم – من عصرنا – لا نود أن نرى أبطالًا لم نعرفهم أو صورة بدون ألوان. وعندما نجدها متأثرة بالحنين للماضي، نتركها وننهض للعب قليلًا حتى تنتهي هي من مشاهدة ما تحب.

ونتيجة لربطنا لحكايات جدتنا بالماضي الذي كنا نراه في أفلام الأبيض والأسود، تخيلنا كل حكايات جدتي التي كانت تسردها لنا بمنظور الأبيض والأسود. كنا نتصور أن الماضي هو الأبيض والأسود فقط وليس زاهي الألوان مثل الحاضر. مثلًا عندما تحكي جدتي عن ملابسها أتخيل كل ما في خزانة ملابسها هي من اللون الأبيض أو اللون الأسود.

أتخيل الحدائق والشوارع التي كانت تتنزه بها هي غامقة، غير مبهجة، أتصور كل شيء من خلال رؤيتي للأفلام الأبيض والأسود التي أعتبرها مملة بالنسبة لي بينما هي شائقة ومبهجة بالنسبة لجدتي.

وكنت أتساءل في نفسي: كيف تحكي جدتي ذكرياتها بمنتهى الشغف والحماس وتتمنى العودة لها بينما هي تكتسي بالأبيض والأسود كالأفلام التي نشاهدها ولا نستمتع بها؟ كيف أن يكون الزمن الجميل جميلًا وهو دون ألوان كالحاضر المبهج؟ كيف تكون الدنيا غامقة وكئيبة قديمًا بينما هي تحبها وتشتاق لها؟ بالتأكيد هناك سر وراء هذا الموضوع.

قررت أن أسأل جدتي عن هذه المعضلة التي حيرتي في سن السابعة من عمري، وسألتها: كيف كنتِ يا جدتي تحبين ذلك الماضي الباهت الخالي من البهجة والفرحة، الخالي من الألوان؟ انظري الآن، الورد اكتست أوراقه بالحمرة والألوان الخلابة والحدائق تغطت بالخضار الجميل الذي يفرح العين، والملابس أصبحت تحمل ألوانًا مختلفة جريئة تبعث على التألق، والطعام أصبح ملونًا يفتح الشهية، كيف تحبين الماضي الكئيب وتحنين له رغم أنكِ رأيتِ بعينك الحاضر بألوانه الزاهية؟

ضحكت جدتي بشدة وظلت تضحك لثوانٍ حتى نظرت إليها متعجبة، كنت لا أدري السبب وراء ضحكها، قالت وهي مبتسمة: الماضي لم يكن باهتًا يا حفيدتي الجميلة، كان الماضي بالألوان. من أين أتيت بفكرة أن الماضي كان خاليًا من الألوان؟

استأت قليلًا من ضحكها وتعجبها وظننت أنه نوع من السخرية، ولكن تمسكت بوجهة نظري وقلت: أتيت بالفكرة من الأفلام التي تحبين مشاهدتها، كلها تكتسي اللون الغامق الكئيب، لا حياة فيها ولا ألوان! كيف تحبين ذلك الماضي الباهت؟

فهمت جدتي ومدحت تفكيري لأنني أفكر وأربط المعلومات بعضها ببعض وأصل إلى نتائج وأستفسر عنها. قالت بحنان: ممتاز! أنتِ بنت ذكية.

شعرت بفخر حينما شجعتني جدتي ولم تسخر من تفكيري الطفولي البريء.

قالت: حبيبتي، الماضي ليس باهتًا، الماضي كان مليئًا بالألوان المشرقة والجريئة، الماضي كان جميلًا حقًّا، كان مثل الحاضر تمامًا، البحر لونه أزرق مثل الآن والحدائق تتشح بالخضرة كما ترينها في الحاضر، الشمس صفراء ذات إشاعة ذهبية تشع بها على الكون.

كل شيء لم يتغير كما تتصورين، بل كانت الحياة أجمل وأقل ازدحامًا، لم يكن الاختلاف في الألوان.

سألتها: إذن لماذا الأفلام باهتة هكذا؟

قالت جدتي: هي مصورة هكذا، ولكنها لم تكن في الواقع هكذا، أرأيتِ الفتاة الجميلة التي كانت ترتدي فستانًا غامقًا، هي في الواقع كانت ترتدي فستانًا أزرق أو أحمر ومطرزًا بحبات الخرز، كنت أمتلك مثله، جدك جاء بمثله لي في إحدى المناسبات، المشكلة يا عزيزتي أن لم تكن هناك تقنيات للتصوير بالألوان، فكان التصوير ظالمًا للأسف في هذا الزمن.

كان ظالمًا للجمال؛ فما أجمل نجمات الزمن القديم!

كان ظالمًا للحياة؛ فكان يصورها من زاوية واحدة ويحرم المتفرج من جمال الألوان !

بينما كانت تلك الأفلام تحمل قيمًا ثمينة؛ فهي الكنز الذي يذكرنا بالماضي حتى لو نقلته لنا باهتًا، ولكن أنا هنا وأعرف أن الماضي لم يكن باهتًا.

أنتِ محقة، ماذا لو كانت تلك الأفلام مصورة بالألوان؟ لا أشك أبدًا أنك كنتِ ستقفزين بداخل التلفاز لتلحقي بذلك الزمن الجميل وتعيشين فيه.

***

"ما رأيكم في حكاية اليوم يا أحفادي الأعزاء؟ أرأيتم كنت مثلكم أستمع لحكايات جدتي، الماضي يكرر نفسه بينما تتبدل الأدوار، أنا أعرف أنكم لا تعرفون كثيرًا عن الأفلام الأبيض والأسود، أنتم الآن في عصر مختلف، تستمتعون بالأفلام بالتقنيات الحديثة، ولكن أردت أن أنقل لكم لمسات من الماضي ومن ماضي الماضي، حتى لا تظنوا أن القدماء كانوا مختلفين، كانوا أناسًا جاءوا للحياة ورحلوا مثلما نحن سنرحل".

وبعدما انتهيت من قص "حكايتي مع جدتي" لأحفادي، نظرت لهم وهم شاخصون لي، تذكرت حينها نظراتي لجدتي حينما تحكي لي قصصها الشائقة، وفهمت حقًّا أن الحياة واحدة ولكن الأدوار تتبدل.

قديمًا كنت حفيدة أسأل جدتي عن الماضي الباهت، أسأل عن الأفلام الأبيض والأسود، بينما اليوم أنا جدة أحكي لأحفادي عن ذلك الموقف مع جدتي.

ها قد اختبرت أن الماضي ليس باهتًا، وعرفت أن التكنولوجيا تطعم الحاضر والمستقبل بلمسات يفتقدها الماضي، ولكن سيظل الماضي أجمل وأحلى في عيون من عاشوا به حتى إن كان باهتاً!

فنجان خالتي!

"إن سر صحة العقل والجسد يكمن في ألا تقلق بشأن المستقبل، وألا تتوقع المصائب، وإنما تعيش الوقت الحاضر بحكمة وبتعقل للأمور".

بوذا

جلسنا في الشرفة بعد انتهاء العشاء العائلي كعادتنا بعد كل تجمع، نجلس في الشرفة لنستمتع بنسمات الهواء لنتسامر قليلًا ونسترجع ذكرياتنا ونتشارك أحاديث مسلية. جلست خالتي وأولادها يذكروننا بأجمل الأيام التي قضيناها في المصيف العام الماضي. بينما جلس أولاد خالاتي الآخرون يلعبون بالداخل ويتبادلون الحكايات معًا. لم يكن هناك شيء أجمل من جلستنا معًا كل أسبوع، هذه الجلسة تهوّن علينا جميعنا مشاغل الأسبوع وهمومه. أؤمن دومًا أن آمن ملاذ لك هو دفء الأسرة وجو العائلة.

بدأت إحدى خالاتي تمارس هوايتها المعهودة التي تصر في كل مرة على تكرارها، بدأت تقول بصوت حماسي: من يريد أن أقرأ له الفنجان؟

كانت خالتي تلك تحب أن تقرأ الفنجان وتختار فردًا واحدًا في كل جلسة كي تقرأ له فنجانه وتكشف له بعض الأشياء التي يخبئها فنجانها.

وفي كل مرة تقول نفس الكلام تقريبًا: خط العمر طويل، هناك شخص خبيث بحياتك، يجب أن تحترس منه! سيأتيك شيء مفرح بعد 3 نقاط، أي ثلاثة أيام أو ثلاثة شهور أو ثلاث سنين.

فكنا نحفظ كل كلمة تقولها ونرددها معها في كل مرة جديدة تقرأ لأحدنا الفنجان، أما هذه المرة فوقع الاختيار عليَّ، لم أكن متحمسًا جدًّا لكن استسلمت لرغبتها وأعطيتها فنجاني حتى تبدأ في ترديد الكلمات نفسها.

وبالفعل رددت تقريبًا نفس الجمل التي أسمعها في كل مرة على الآخرين، فضحكت وسألتها: لماذا يحب الناس قراءة الفنجان؟ لماذا يحبون أن يقال لهم المستقبل حتى ولو كان الأمر مجرد مزحة وليس حقيقيًّا؟

تعجب الجميع وقالوا: ما هذا السؤال؟ الأمر كله مجرد مزاح وتسلية للوقت. أستمارس علينا الفلسفة التي تدرسها في الكلية؟ أهذا عقابنا لأننا جئنا لنبارك لك على التحاقك بالكلية؟

ضحك الجميع.

ابتسمت وقلت لهم: فقط أريد أن نتناقش، لماذا نجري ونلهث وراء معرفة المستقبل؟ هل لو عرفنا المستقبل، سيغير هذا من الأمر؟

ردت أمي: يحب الناس أن يستبشروا الخير في القادم، يظنون أن هذا نوع من أنواع التفاؤل الذي يعطيهم الأمل في أن القادم جميل ويستحق عناء اليوم.

وتابعها ابن خالتي: لكن لو الذي قرأ لك الفنجان لم يبشرك بل بعث فيك القلق وقال لك أشياء مقلقة أو مؤلمة! إذن ما السبب؟

قالت له: إذن فسيأخذ حذره من الأيام!

قال أبي: أتعجب حقًّا حينما أجد الناس يتلهفون على معرفة أحداث الغد، لماذا يستعجلون الحياة؟ لماذا لا يركزون في حاضرهم فقط ويستمتعون به، الله سبحانه جعل الإنسان لا يعرف الغيب لقصد وحكمة.

تدخل زوج خالتي -المعروف بخفة دمه وروحه المرحة - بينما ينظر غامزًا لزوجته: يكفي علينا الماضي وجراحه، ابتسم الجميع ناظرين لخالتي، ثم استطرد كلامه: الأجدر بنا أن نستطيع أن ننسى الماضي أولًا وما فعلناه قديمًا حتى نعرف كيف نعيش. كيف سنشغل بالنا أيضًا بالقادم؟ لن تكون هذه حياة مريحة أبدًا.

ابتسمنا جميعًا.

تدخلت ابنة خالي في الحوار: لكن لو عرفنا المستقبل، فسنعرف النتيجة مقدمًا وسنحسم أمورنا إذا كنا نكمل في طريقنا، أم لن تجدي جهودنا وتذهب سدى.

قلت لها: هل تحتاجين أن تعرفي النتيجة مسبقًا؟ هل تستخسرين مجهودك في تحقيق أحلامك؟

قالت: وماذا يجدي مجهودي إذا لم أحقق الحلم؟

قلت لها: بالطبع هناك فارق كبير.

أيد خالي كلامي: معك حق، أنا معك، الحلم هو نتيجة لمجهوداتنا، وإذا لم يفتح باب الحلم الذي نريد تحقيقه، من الممكن أن تفتح لنا تلك المجهودات أبوابًا أخرى وتصقل من شخصياتنا.

فقلت لخالي بكل إعجاب: دائمًا يا خالي أحب آراءك، بالطبع فنحن قبل المحاولة والسعي غير بعده، تتغير داخلنا أشياء كثيرة، يولد بداخلنا المثابرة والقوة، نتحول لنسخة أفضل أكثر نضوجًا وصقلًا، فالسعي كالمفتاح، نظن أنه يفتح بابًا واحدًا بينما هو في الحقيقة يصلح لفتح مئات الأبواب فقط إذا جربناه وفتحنا به أبوابًا أخرى.

قالت أمي: إذن اليوم هو مناقشة فلسفية في الشرفة يا أستاذ!

ضحك أبي: اتركيه، المناقشة حقًّا جميلة، لم أفكر يومًا في هذا الموضوع.

ردت أمي وهي ناظرة لخالتي: فنجانك هو السبب.

قالت خالتي ضاحكة: أهذه أول مرة؟ كل مرة أقرأ الفنجان لفرد من أفراد العائلة، الجديد أن ابنك التحق من شهر بالكلية وبدأت دراسة الفلسفة تسيطر عليه.

واستطردت خالتي الحديث: ألم أقل لك منذ فترة قبل التحاقك بالكلية بمدة وقبل ظهور نتيجة التنسيق، وقرأت لك الفنجان قبل النتيجة، وقلت لك إنك ستلتحق بكلية توجع الدماغ والعقل، أرأيت فنجاني لا يكذب!

من العجوز؟

"الحياة ليست رحلة لاكتشاف الذات، ولكن رحلة لصنع الذات، فاجعل من نفسك شيئًا يصعب تقليده".

سقراط

نظرت من نافذة القطار ممتنة لكل المشاهد التي أراها بعين جديدة، كنت جالسة بجانب النافذة متوجهة الرأس ثابتة النظر نحو اللون الأخضر الذي يكتسح المشهد حولي. فالقطار يهرع مارًّا بالحقول والأراضي الخضراء التي تحمل النسيم الصافي بينما تضرب في عيني الشمس بقوة ضوئها وكأنها مسلطة شعاعها نحو عيني فقط. سرحت في المشهد الجميل وظللت أتأمل لساعات حياتي التي مضت.

داعبت أشعة الشمس عيناي قليلًا، لكنني لم أكترث بل كنت في غفوة سارحة في حالي وحياتي وما وصلت إليه! تذكرت عندما كنت صغيرة أجري نحو والدي وألعب معه وأداعبه ليجري ورائي ويتظاهر أنه غير قادر على الإمساك بي، تذكرت أمي حينما تعدل شعري وتمشطه بيديها الحانيتين، تذكرت تمسكي بالعريس الذي جاء مع أهله ليتقدم لي ووجهي ينضح بالفرحة والحيوية بينما وجه والديَّ يضج بالاقتضاب واللاحيلة! تمسكت به رغم غضب والديَّ، حاربت من أجل أن أتمم هذه الزيجة التعيسة التي شربت من كأس مرارتها أعواما لتسرق عمري وتخطف فرحتي وسلامي. كان والدي يعلم جيدًا أن هذا ليس بالزوج المناسب لي، ظل ينبهني مرارًا وتكرارًا حتى أعدل عن إصراري لكن دون جدوى! أصابني العمى الذي جعلني أصدق أنني سأكون سعيدة، أتلف الهوى تفكيري عندما استحوذ على عواطفي ومشاعري.

عشت المرارة والفشل مرارًا حتى أنني اقتنعت أن العيب بي، ألصقت بنفسي التهم، وحاولت أن أكتشف خطئي. منذ كنت طفلة صغيرة حتى أصبحت شابة يافعة أجاهد محاولة أن أكتشف نفسي، أعرف رغباتي، وأفهم ذاتي! وتأتي كل المحاولات عبثًا، أشعر أنني تائهة وليس هناك من يدلني، وكيف لأحد أن يدلني ويعرفني على مكنونات قلبي وتركيبات وجداني؟ كيف لي أن أستأمن أحدًا وأعطيه المفتاح وأقول له: "أنا لا أفهم نفسي، دلني أنت". للأسف فعلت ذلك كثيرًا وما زالت أفعل، لا أدري كيف أعرف ماذا أريد وما يصح وما لا يصح، كيف أكتشف الخطأ من الصحيح؟ كيف أعرف الشيء المنطقي من غير المنطقي؟

دوامات من الأفكار تلتهم رأسي ولا تتركها في سلام، ظننت أن المشكلة تكمن في اعتمادي الكلي في الطفولة على والديَّ لأنني كنت أفضل دومًا دور القاصر التي يؤخذ لها القرارات، أرتاح لذلك، أو يرتاح أهلي لذلك غير شاغلين بالهم أنني سأكون بالغة يومًا ما، لم يعودوني على أن أتخذ قراراتي بنفسي وأتحمل تبعاتها، وأتت الأمور بنتائج عكسية عندما كبرت فظننت أنني يجب أن أتمرد على هذا الوضع وأن أفعل ما أريد، بل بالأحرى عكس ما يريدون حتى أثبت لهم أنني كبرت.

هذا حقي، يجب أن أدير شئوني الخاصة، لم أكترث لعمق خبراتهم في الحياة أو حتى أسمع لها ولو قليلًا، عاندتهم حتى تزوجت ذلك الفتى الجميل المنظر صاحب الطلة الخاطفة، كنت أحبه بجنون، لا تمر لحظة حتى يكون هو مارًّا بعقلي وقلبي، أراه أمامي دومًا، مجنونة به!

رضخ أهلي لهذه الزيجة وتم زواجي، واكتشفت الوجع الذي يتبع لسعات النار، فعندما يلمسك لهيب النار للحظة وتنزع يدك تلقائيًّا، لن تشعر بالألم في وقتها ولكن تتزايد تدريجيًّا آلام تلك اللسعة السريعة وتشعر بالتوجع أكثر كلما مر الوقت، هكذا كانت حياتي معه، لم أشعر بأي متاعب في البداية مستمتعة بلهيب الحب الزائف ثم أتت الأوجاع تباعًا. اكتشفت طباعه السيئة وعدم أمانته وسلوكه السيئ، تبدل وتغير بشكل غريب، أصبح شخصًا

آخر، لا لم يتبدل، كان نفس الشخص ولكنني كنت عمياء، أغض البصر عن أي شيء لا يعجبني وأحاول أن أتجاوز العيوب لتتم الزيجة ونعيش في هناء.

كنت بين نارين، أشعر أني ورقة شجر ساقطة من الشجرة في مهب الريح، تأخذها الرياح هنا وهناك ولا تقوى الورقة على تحديد أي شيء يخصها، فهي تطير حيث تدفعها الريح! كل شخص يشير عليَّ برأيه، أقتنع بكلامه وأشعر أنه صحيح بينما يقول لي آخرون نقيض الكلام أقتنع أيضًا أرفض الكلام الآخر، كلمة تأخذني، وكلمة تغيرني، وكلمة تسرقني، وكلمة تغضبني، وكلمة تأخذني إلى حيث لا أريد.

انتبهت لحالي وإذا أنا ما زلت في القطار ناظرة إلى النافذة، نظرت حولي وجدت كل شيء كما هو، وسألت من كان بجانبي متي سأصل إلى مقصدي، البلدة الصغيرة التي أتجه إليها، أجابني: "ما زلنا في منتصف الطريق، لا تقلقي، سيمر الوقت".

قلت له: "لست في عجلة من أمري، أنا سعيدة جدًّا بهذه الجلسة اللطيفة والنافذة التي تطل على أعذب المناظر".

ونظرت مجددًا إلى الحقول الخضراء، وإذا بي أجد الفلاحين مع زوجاتهم وأولادهم ينتشرون في كل أرجاء الحقول، ودققت النظر في بيوتهم البسيطة، فكرت كم هم سعداء راضون بحالهم، يا ليتني مثلهم، بسيطة، أتمتع بذلك المنظر كل يوم، أملك أسرة سعيدة متوافقة، تمنيت لو كنت في نصف سعادتهم! هل هم سعداء حقًّا كما أنا أتخيل؟ أم يتخيل المرء الجميع حوله سعداء حينما يكون تعيسًا؟

نفضت غبار الذكريات التي تنغص عليَّ رحلتي الصغيرة وحاولت التركيز فيما سأقوم به؛ فيجب أن أرتب أفكاري حتى أقوم بعملي على أكمل وجه. لقد أرسلني رئيس التحرير لكي أجري حوارًا مع أكبر معمرة في البلد لكي نقوم بنشره في الجريدة التي أعمل بها. إنني أحب عملي ويجب أن أجمع كل تفكيري ومجهودي لينصب على عملي فقط حتى يكون بأحسن صورة.

وصل القطار سريعًا المحطة التي أتوجه إليها، بل كان أسرع من تكرار الذكريات على عقلي، أو يمكن أن الذكريات والآلام هي ما قصرت الطريق وجعلت الوقت يمر بسرعة.

نزلت من القطار وأخذت أسأل عن العنوان المنشود حتى تمكنت من الوصول لأرى تلك السيدة التي سأكتب عنها في الجريدة. رحب بي أهل البيت من الأحفاد وأحفاد الأحفاد. تحيرت من أمرها؛ فهذه السيدة ترى أحفاد الأحفاد، وترى الأجيال التي بعدها، وتشهد تغييرات على مدى قرن وأكثر. تساءلت في نفسي: كيف تتعامل مع هذه الحقيقة؟ الزمن ليس زمنها، على رأي المثل "ستأخذ زمنها وزمن غيرها". لم أكن متحمسة للغاية لعمل هذا التحقيق معها من البداية، ولكنني أحب إتمام مهامي على أكمل وجه؛ لأنني أحب عملي كما قلت من قبل.

سألت أحد الأحفاد وحاولت أن أعرف منه بعض المعلومات قبل مقابلتها، فأخبرني ببعض الحقائق عنها. عرفت أن كل أولادها ماتوا منذ وقت لكبر سنهم بينما هي مازالت حية ترزق ! دونت كل المعلومات حتى أتمكن من كتابة التقرير اللازم عنها. وخرجت لي السيدة المعمرة أخيرًا من غرفتها مسندة يديها على إحدى حفيداتها التي تعد هي الأخرى متقدمة في السن! فالحفيدة في سن جدتي، قد يبدو أنها تجاوزت الستين من عمرها، بينما تجاوزت المعمرة المائة والعشرين عامًا!

جلست بهدوء وتروي بينما تتفحص عيناي شكلها وهيئتها لأنظر ماذا فعل الزمن ببشرتها وجسمها وهيئتها، حتى قطعت هي الهدوء الذي خيم عليَّ وقالت لي: "انظري يا بنيتي، هذه صورة لي وأنا في العشرين من

عمري، انظري كم كنت جميلة". تعجبت منها ولكنني وجدتها تفتح صندوقًا صغيرًا تحتفظ فيه ببعض الصور لها في كل مراحل عمرها، وأخذت تريني إياها.

لم أكن أصدق أن الزمن قادر أن يسرق الجمال والهيئة الجميلة والجسم اليافع، لم أكن أتيقن أن كل شيء يتبدل في الحياة ويتغير! نظرت لتجاعيد بشرتها ولضآلة حجمها وانحناء ظهرها، تأملت عينيها، كان لها نفس البريق الذي وجدته في جميع صورها، لم ينطفئ بريق عينيها ولم يتغير، كأنه يريد أن يقول لي إن هذا سرعمرها الطويل.

وقلت لها سأسجل الحوار بالكاميرا ليراها الجميع وهي تتحدث ووافقت بالطبع، بدأت أستعد لتصويرها وبدأت أوجه لها الأسئلة محاولة أن أقوم برفع صوتي قليلًا حتى تسمعني جيًدا، وأحاول أن أشرح السؤال بأبسط طريقة، أنا أعلم أن كبار السن تكون لديهم حاسة السمع ليست كعهدها السابق، أو يفتقدون للبال الطويل حسب ما ظننت.

كان سؤالي لها هو السؤال الذي سيخطر على بال أي شخص في هذا الموقف ألا وهو: "ما سر العمر الطويل في رأيك؟" قالت بهدوء: "كل شيء بيد الله سبحانه، وليس هناك وصفة أو خلطة أعطيها لأحد لكي يحيا طويلًا". ضحكت ضحكة تنضح بالحياة والخفة بعدما قالت هذا. فشرحت لها: بالطبع، أعلم طبعًا أن الأعمار بيد الله، لكن نريد منك أن تعطينا نصائح نظرًا لخبرتك الكبيرة في الحياة، أنت عاصرت أزمانًا وأوقاتًا مختلفة، بالتأكيد لديك نصائح تقولينها لهذه الأجيال.

فأجابت: "نعم مرت السنون عليَّ وعاصرت الكثير ومررت بالتجارب الكثيرة يا بنيتي، الحقيقة هي أنني لا أحمل همًّا أبدًا، عشت حياتي كلها دون أن أحمل همومًا، أدركت أن كل شيء بيد الله، فسلمت أمري لربي، وشعرت أن كل شيء جميل، وأنني أستمتع بحياتي مهما حدث! أبتسم وأضحك دومًا، انظري هذه حفيدتي، عمرها ستون عامًا، هي جدة الآن، دائمًا أقول لها لا تقلقي ولا تحملي الهموم فوق رأسك، أجدها دائمًا تحمل أثقالًا فوق كاهلها، تفكر في أولادها وأحفادها وتفكر في كل كبيرة وصغيرة، انظري لها، إنها تبدو أكبر مني سنًّا". قالت هذا وضحكت وضحك الجميع.

استطردت: "الحياة لا تستحق الخبث والمكر والخديعة، لا تستحق أن نتنازع وأن نعكر صفو حياتنا بسبب خلافات ومهاترات، كل هذا يسحب من رصيد سلامنا وسعادتنا، راحة البال لا يضاهيها شيء؛ فهي كنز الحياة يا عزيزتي".

سألتها بفضول: "إذن ماذا نفعل عندما نقع في المشاكل وتحيط بنا الأحزان؟" قالت: "نعرف أنها ستمر، كل شيء سيمر، مررت بكثير من الأحزان في حياتي، لا تظنيني بلهاء لا أكترث بشيء، حاربت وأحببت وكرهت وفرحت وحزنت، في النهاية كل شيء مر وانقضى".

قلت لها: تذكرينني يا سيدتي بمقولة قرأتها لدوستويفسكي، أديب روسي شهير "أحببت وتعبت، وكرهت فتعذبت، ووقفت على الحياد بين العواطف وتعذبت، ولكنني رغم ذلك ومع ذلك عشت". تقولين ذات المعنى يا سيدتي، حديثك يضج بالخبرات، أستمتع جدًّا بكل كلمة تقولينها، عمومًا ننتقل لسؤال آخر: ما هو أفضل وقت في حياتك؟ الطفولة أم الشباب أم الآن؟

قالت: ستصدقينني إذا قلت لك إنني أحب كل وقت مر في حياتي، أحب هذا الوقت من عمري، أستمتع به بينما أنظر من بعدي أجيالًا تمتد من بعدي، قد جاءت العالم بسببي، أرى العالم بعين مختلفة في كل مرحلة من حياتي

ولكنني لكي أكون صادقة تمامًا أحن لتلك الأيام التي كنت فيها أمًّا وأرى صغاري يركضون حولي، أفتقد إحساس الأصدقاء الذين كانوا من نفس عمري، لكن أسعد بواقعي جدًّا وأحب الحياة مهما حدث.

نظرت إليها في إعجاب وحسد، نعم حسدتها على سعادتها وحبها للحياة، فهي وصلت من العمر إلى أرذله كما يقولون، بينما أنا ما زلت شابة في مقتبل الحياة أتجرع الأسى وأنظر للدنيا بنظرة سوداء.

سألتها بتردد: هل يمكن أن أسألك سؤالًا شخصيًّا، أريد أن أستشيرك في أمر يخصني، وبما أنك اختبرتِ الكثير من الأمور، أريد أن أستفيد من حكمتك الكبيرة التي أراها أمامي متمثلة في حبك للحياة وتقبلك للواقع كما هو، بينما يعيش الكثير مثلي على حطام الماضي الباهت الذي ينغص عليهم حاضرهم ومستقبلهم، فيشعرون أنهم سجناء الماضي.

أومأت برأسها بالموافقة ودعتني للجلوس على انفراد في شرفة غرفتها لنكون على راحتنا في الكلام.

وأوضحت لي أنها تحب شرفتها جدًّا، تجلس بها يوميًّا لتقضي وقتها مستمتعة بالشمس التي تعدها نعمة من نعم الله على الطبيعة. لا يمر يوم إلا وتجلس صباحًا وتتأمل وتشكر الله على نعمه الكثيرة.

نظرت لها وعلمت أن امتنانها شيء عظيم يجب أن يدرس، يجب أن يكون المرء دومًا ممتنًا لكل ما يمضي به ليكون مثلها مشرقًا ومفرحًا رغم السن ورغم العمر، حقًّا العمر إحساس، لو كنت شابًّا في العشرينيات وشعرت أنك عجوز عاجز ستكون كذلك، أما إذا كان عمرك تخطى الستينيات وتشعر أن روحك ما زالت بالعشرينيات، فهذا عمرك الحقيقي.

أعطتني هذه العجوز دروسًا دون كلام، أرتني حقًّا من العجوز، أنا العجوز وليست هي!

أنا من أشعر بالعجز ولا أقدر على تخطي ما فات، لا أقوى على التعلم والمثابرة، أنا من أحمل روحًا محبطة وعاجزة بينما هي سعيدة وفرحة ومشرقة.

جلسنا بالشرفة وبدأت أن أحكي لها كل ما حدث لي مع زوجي الخائن الذي خيب ظني وجعلني أعاني كثيرًا، حاولت أن أصف لها بما أشعر، شرحت لها دون تطويل كيف أنني لا أقدر على تخطي تلك الأزمة المريرة في حياتي، فشبح الذكريات المؤلمة يطاردني، لا أشعر بمذاق الحياة التي هي تصفها خلال حديثها طوال الوقت.

ربتت على كتفي محاولة مواساتي قائلة: "لا تحزني، لولا ما مررتِ به لما عرفتِ ما سيحدث، أحيانًا نتصرف كالأطفال، نحتاج أن نضع يدينا في النار كي نعرف أنها تحرق، نحتاج أن نجرب بأنفسنا حتى نتحقق ونكتسب الخبرات، تقبلي ما حدث ولا تنكريه وتعلمي وانظري للأمام، اجعلي ألمك يكون معلمك في الحياة، لا تجعلي لهيب الأزمة يخنقكِ ويبقيكِ في الماضي، اخرجي من الماضي واتجهي إلى المستقبل لتعيشي الحاضر هادئة وسعيدة، الحياة علمتني أن الأزمات تصقل أرواحنا لنكون أكثر جلدًا".

سكتت ثم أكملت: "الشدة تجعل منك إنسانة جديدة برونق مبهر وكيان متجدد، وهذا ما تفعله معنا الحياة يوميًّا، فأنتِ ليست أنتِ كما كنت البارحة، كل يوم تتجدد طاقتك وتزداد معارفك وتصقل مهاراتك، كل مرحلة هي خطوة لحياة جديدة لكِ، الطبيعة متغيرة ومتجددة، وأيضًا البشر الذين هم جزء من الطبيعة يجب أن يكونوا متجددين ومتغيرين".

لمعت عيناي من شدة إعجابي بكلماتها وشعرت أنني كنت في حاجة شديدة لتلك الكلمات القوية التي شددت مني وجعلتني أشعر برغبة أكثر في تخطي أزمتي، كيف لها أن تقول هذا الكلام المفعم بالأمل والطاقة؟!

لقد جاد الزمن عليها بالحكمة والخبرة العميقة للأمور، شكرتها كثيرًا على هذا الحوار الممتع المثري الذي سيكون أول درجة لي في سلم التغيير والنظر للحياة بطريقة جديدة.

سلمت عليَّ بابتسامة صافية قائلة :"حبي الحياة يا عزيزتي ولا تنسي أن تحتفظي بصور لكل مرحلة في حياتك، كما فعلت أنا لتعرفي كم ستغير فيكِ الحياة، ليس فقط شكلًا، ولكن روحًا وعقلًا ونفسًا".

الرجل الذي قضى عليه ... !

"عيب على الإنسان ألا يفر من رذائله وهو ممكن، بينما يحاول الفرار من رذائل الناس وهو غير ممكن".

الفيلسوف الرواقي ماركوس أوريليوس

لم يذق مرارة الأيام إلا من تجرع كئوس الفشل مرارًا وتكرارًا، لن أبالغ حينما أقول إن حياتي هي عبارة عن سلسلة من الفشل متتالية تخنق صدري. كنت طالبًا مجتهدًا في دراستي الجامعية، بل كنت أحقق المراكز الأولى على الدفعة دومًا. بعدما تخرجت وبدأت حياتي العملية لأبدأ في شركة جيدة، لم تكن شركة أحلامي ولكن لا بأس، المهم أن أبدأ! بالفعل بدأت العمل وكنت متحمسًا جدًّا لبدء أولى خطواتي. لم أكن أعرف لماذا جميع زملائي يحاولون الابتعاد عني، هل لأنني زميل جديد؟ هل المكان لا يرحب بالزملاء الجدد؟

تجاهلت الموضوع ولم أعطه الكثير من جهدي في التفكير، كل ما يهمني هو أن أثبت نفسي وقدراتي وأحقق ما أبتغي.

لم أكمل أسبوعًا في العمل حتى جاء قرار بالاستغناء عني، وهنا كانت الصاعقة، لم تكتمل فرحتي لأسبوع واحد حتى جاءت خيبة الأمل لتنهش طموحي وأحلامي في مهدها.

حاولت أن أعرف السبب، ولكن لم يرد أحد من الشركة أن يوضح لي السبب الحقيقي وراء ذلك، جلست في البيت حزينًا ومحبطًا، فأصعب اللحظات حينما تظن أنك ملكت الشيء وتفقده بسرعة من بين يدك كحبات الرمل التي تنساب من بين أصابعك وأنت غير قادر على تملكها. حاولت أن أخرج من حزني وإحباطي أخيرًا وأقنعت نفسي أن هذه ليست نهاية العالم؛ فأنا في مقتبل الشباب، ويجب أن أكون أكثر تفاؤلًا وحماسًا. قررت أن أبحث عن عمل من جديد لأثبت لنفسي أن الشركة التي تخلت عني هي التي خسرت وليس أنا.

بدأت في التقديم في شركات أخرى، كان تقديري الجامعي فقط هو ما يشفع لي، لأنني بدون خبرة سابقة، ضحكت لي الحياة من جديد وتم قبولي في شركة كبيرة ولها سمعة طيبة في سوق العمل. كنت طائرًا من السعادة عندما علمت بخبر قبولي وأيقنت أن تعويض الله ليس بهين. بدأت العمل فورًا ووجهت كل طاقة حماسي في العمل والاجتهاد، كان مشهودًا لي بالذكاء والكفاءة حتى مر على قدومي للعمل شهر واحد، صدمني خبر التخلي عني أيضًا بعد شهر من عملي في المكان رغم كفاءتي وحماستي التي أديت بهما عملي على أكمل وجه.

لم أكن على دراية بالأسباب، ولا يريد أحد أن يشرح لي الأسباب الحقيقية، حدث بالضبط مثل ما حدث معي في الشركة السابقة. تحيرت في أمري: هل أنا تعيس الحظ؟ أم محسود؟ أم هي مجرد صدفة؟

ظلت الأسئلة تتسلل إلى عقلي لتزيد من بؤسي وهمي، فكرت في التفكير الأسهل، الأقرب إلى النفس ألا وهو أنني غير مسئول عن هذا، لم يكن الذنب ذنبي، أنا فعلت ما بوسعي ولكن لا أستطيع أن أتحكم بالظروف، حاولت أن أصدق أنني لم يكن لديَّ مشكلة وأن المشكلة في الآخرين.

وهنا تكمن مشكلة الإنسان دائمًا، يظن أنه الضحية والمشكلة في الآخرين، لو أجهد عقله وفكر في نفسه قليلًا وأصلح من حاله، لكنا نعيش في كون آخر مليء بالنجاح والسلام.

وظلت أيامي متأرجحة بين تنقلي من عمل لعمل، ومن شركة لشركة، حتى تعودت ولم أعد أسأل عن الأسباب ولم أشغل بالي بشيء، لم يكن عملي مستقرًّا ولا حياتي تسير على وتيرة هادئة، ولكن قررت أن أتناسى ذلك وأن أفكر في أمر جديد.

شعرت أن الوقت مناسب لأكون مستقرًّا وأن أكوّن أسرة وأبحث عن زوجة طيبة تشاركني رحلتي الشاقة وتحمل معي هم الأيام وتهون عليَّ مرارات الفشل وسوء الحظ. بدأت رحلة البحث عن عروسة وسؤال المقربين والمعارف عن عروسة بها مواصفات جيدة، حتى وقع الاختيار على فتاة من عائلة طيبة ولديها قسط وافر من الجمال؛ فقررت أن أتوكل على الله وأقوم بخطبتها.

ذهبت مع عائلتي لنقوم بطلب يدها من والدها الذي رحب كثيرًا بي في البداية، وتمت الخطبة بحمد الله، ومر علينا معًا ثلاثة أشهر في خلافات وعدم وفاق ومشاكل دائمة، حتى قررنا ألا نكمل الخطوبة ويشق كل واحد طريقه وحده.

لم أحزن كثيرًا لأنني لم أكن أحبها أو أرتبط بها عاطفيًّا لدرجة كبيرة، كل ما في الأمر أنني شعرت أن الفشل يدق بابي من جديد. لم يكفِه أن يعكر صفو حياتي العملية، ولكن قرر أن يخترق حياتي الأسرية العاطفية ليطفئ فرحتي ويأجج لديَّ فكرة الفشل المتكرر المشئوم.

بدأت أبحث من جديد على فتاة أخرى مناسبة لي ولظروفي حتى وجدت فتاة طيبة، وقررنا أن نرتبط رسميًّا وأن نتمم الخطبة، بدأت أقع في حبها، ولكن حياتنا لم تخلُ من المشاكل، كثرت مشاكلنا وتعالى صياحنا وصراخنا، ولم يقدر حبنا على إنقاذ الموقف وتم فسخ الخطبة وعدت وحيدًا كما كنت.

وهنا توقفت كثيرًا لأتأمل ما يحدث، هناك شيء غريب في حياتي يخنق كل فرح يأتيني، هناك فشل يحطم أي إنجاز في حياتي. أنا ضحية سوء حظ أم ضحية شؤم يتبعني أينما ذهبت! كنت أشعر أنني مضطهد من الكون كله، وأكثر ما يعزز اعتقادي هذا هو عدم اكتمال أي شيء للنهاية في حياتي.

جن عقلي وتحيرت في الأمر حتى قررت أن أذهب لأحد الدجالين ليطلعني على سر فشلي المرير، لأني لم أعد قادرًا على المثابرة.

قصصت عليه ما يحدث معي، فأكد كلامه ما كنت أظنه بالفعل. أكد لي أن هذا سحر وسوء حظ مربوطان بي ويجب أن أتخلص منهما.

أول شيء تتجه له عقولنا عندما نواجه فشلًا هو سوء الحظ ونظرية المؤامرة، وكأننا نوفر عنا جهد المشقة في تغيير أنفسنا.

كيف نكلف وسعنا في التغيير والجهد والتعب؟ كيف نصدق أننا لسنا ملائكة وأن أجنحتنا ليست موجودة كما نظن؟ متي نواجه الواقع ونحل المشكلة من جذورها؟

صدقت كل كلامه وبدأت أنفذ كل ما قاله لي ولكن بدون جدوى، أتمرر أكثر وأكثر من الفشل والحزن.

باءت كل محاولاتي بالفشل وأيقنت أن لا مفر من التخلص من الشؤم وسوء الحظ، فصارا مرافقين لي شئت أم أبيت.

واعلم يا صديقي أنه يوم ما تعتقد ذلك عن نفسك فأنت مضيت إقرارًا ووثقته بأنك ستكون كما قررت.

وظهر لي فجأة صبي صغير يريد أن أتصدق عليه ببعض المال ولكني من شدة إلحاحه، صرخت به ونهرته حتى يغرب عن وجهي، لم أكن أعرف هذه الصرخة بسبب إلحاح الطفل أم احتجاجًا على كل ما أمر به وتنفيسًا عن حالي! لم يسلم الولد من لساني وتعنيفي الشديد.

وإذ فجأة رد الصبي: على راحتك يا أستاذ! لماذا تصرخ بي؟

لا تقابل الحياة بالصراخ واللسان السليط وإلا لكمتك الدنيا لكمات لا تقوى على تفاديها.

قالها الطفل بأسلوب أكثر فظاظة بالطبع .

فقلت له: أتعطيني الحِكَم وتعلمني يا طفل الشارع!

سكت الصبي ومشى بعيدًا، وشعرت بندم بسيط يعتري فؤادي، ولكن أكملت طريقي للمنزل حزينًا مكتئبًا وأسفًا.

لم أكن أعرف أن هذا الموقف سيكشف لي عن سر اللغز الذي يحيرني طوال السنين الماضية، جلست بشرفة البيت أتأمل المارة وأسرح في حالي وأمري البائس، دائمًا جلوسي في الشرفة يجعلني أكثر تركيزًا وهدوءًا، أيقنت فجأة سر ما يحدث لي كله، حاولت ربط الأحداث وهنا بدأت الأمور تتكشف أكثر فأكثر!

كنت مجتهدًا وذكيًا ولكنني لم أكن لطيفًا، كان لساني سليطًا، يقذف السيئ على الناس فقط، لم يكن يسلم من لساني زملائي في العمل أو مديري حتى في أمور الزواج لم أكن لطيفًا أو حلو اللسان مع الفتيات التي كنت أريد الارتباط بهن.

كنت أتوقع من الجميع أن يقبلوني كما يقبلون مميزاتي الأخرى، فهذه طريقتي المعهودة ويجب أن يتقبلها الجميع ويتعاملوا معها كأمر واقع. كنت أقنع نفسي أنني صريح، غير منافق، غير مجامل، كيف لا يحسبونها ميزة، كنت غير قادر على قول أي شيء به مجاملة أو كلام حسن. كنت أظن أن هذا لا نفع منه. تربيت هكذا، يجب أن أكون جادًا جافًا، كنت أقترح على مديري التعديلات بطريقة تنفره من الأمر، بطريقة غير ذكية.

هل كنت أظن نفسي طوال هذه السنوات ذكيًا حقًا؟ بينما أنا أجهل أبسط مبادئ التعامل في الحياة مع الناس، لم أكن أعرف أنها أهم حرفة في الحياة، لم أكن أعرف أنها سر النجاح، لم أكن أدرك أنها تفتح الأبواب، كنت أظن أن النجاح هو فقط استذكار الدروس والتفوق على الأوراق، فجأة شعرت أنني كنت غبيًا حينما لم أعرف كيف أكسب من حولي؛ طردني المدير حينما وجد لساني سليطًا، كرهني زملائي ولم يريدوا الاقتراب مني لأنهم وجدوا أنني سأؤذيهم بكلامي السام.

كان لساني سبب فشلي!

كنت أنا الرجل الذي قضى عليه ... لسانه!

الفرصة الثانية

"لا ليل يكفينا لنحلم مرتين".

محمود درويش

لم أعد أحتمل ألم الضربات، أحارب من أجل تحقيق الحلم ولا أفقد الأمل في استرجاع هدفي الذي على وشك الاختفاء. أقف على حلبة مصارعة، لديَّ من العزيمة والأمل ما يكفي، أثابر من أجل تحقيق هدفي، أضرب الخصم بكل ما أوتيت من قوة، أحاول أن أنتزع حلمي من أحشاء الحياة، ظللت فترة أكافح وأتكبد العناء لاستكمال ما بدأته، ولكن بدأ الوهن يطول جسدي والعرق يتصبب جبهتي، أنفاسي تستغيث، الكدمات تعلو وجهي، الصدمات أنهكت جسمي، لم أعد أقوى على استكمال الجولة، أشعر أنني بدأت أخور وأفقد حماستي، استسلمت للكمات الخصم التي طالت كل أجزاء جسمي، لم أعد أشعر بالألم مثلما كنت أشعر به في بداية الجولة. اعتاد جسدي على تلقي الضربات الموجعة التي أفقدتني قوتي، سقطت ولم أنهض، تذكرت كيف أعددت لهذا الوقت، كيف تمرنت، كيف كان حماسي للعب. غلبتني الظروف وأنا من شجعتها لتكون شماعتي التي أضع عليها حجة عدم استعدادي جيدًا وعدم مثابرتي للنهاية.

الظروف تطرق باب الجميع، تظهر أنيابها للجميع، تفرش ألوانها الغامقة الكالحة لتسد أمام عيونك أي نقطة بيضاء تشعرك بالأمل.

الظروف تكسر الأحلام، وتقصف الأقلام التي تريد أن تكتب وتنطلق في الكون مغردة بأناشيد الإنجاز والنجاح، الظروف تقسو على الناس وتكبلهم بقيود محكمة لتمنعهم من الفرار.

هكذا شعرت عندما استسلمت للظروف ولم أكافح أو أقاوم من أجل الفرار أو من أجل تحقيق ما أريد. تركت الطوق في يد الظروف تسحبني حيث تريد ولا أعترض ولا أمتعض وكأنني مضيت عقد استسلام لصالح الظروف وكل بنوده ضد نفسي وضد حلمي!

حاولت أن أستريح قليلًا لأخذ هدنة وللراحة من تلقي كل تلك الضربات، ونظرت ابني من بعيد فوجدته يشاهدني وفي عيونه حسرة وانكسار. حزنت لأني لم أكن جديرًا أن أكون مثال للمثابرة أمامه. فكانت نظراته المنكسرة المحسورة هي بمثابة ضربات ولكمات أكثر قسوة وشدة على نفسي! شعرت بالمرارة تختلج أنفاسي والحزن يكسو ملامحي.

فكرت برهة في وضعي وأيقنت أنني لن أقوى على الاستمرار في المواجهة، ولكن لديَّ جولة ثانية يمكن الاستفادة بها وتعويض خسارتي.

وجال في بالي فكرة أزعم أنها عظيمة! الجولة الثانية تحتاج لمواجهة من نوع آخر، تحتاج إلى شخص آخر يكمل ما بدأته، ويحقق ما فشلت أنا في تحقيقه، ويرد لي كرامتي التي تبعثرت عندما استسلمت للظروف ولم أقوَ على اقتناص هدفي عنوة عن الخصم.

"الفرصة الثانية هي ابني!"

ظللت أردد تلك الجملة والبسمة تعلو ثغري، فهو شاب قوي في مقتبل عمره، قوي وقادر على المواجهة والمطاحنة في الحلبة.

ولماذا أنجبته في هذه الحياة؟ أنجبته من أجل هذه اللحظة، من أجل أن يساعدني ويعزز ضعفي ووهني، ويحقق مجدًا كنت أريد أن أحققه لنفسي ولم تسمح لي الظروف. لعل حظه يكون أفضل مني ويقوى على ما فشلت ويفرح قلبي ويعوض أملي.

ناديت عليه بسرعة وأخبرته عما في خاطري وقلت له بكل حماس: "أنت فرصتي الثانية، أنت من ستكمل ما بدأته أنا، أنت من ستحقق آمالي في الحياة وتعوض صبري خيرًا".

صمت الابن ولم يفهم في بادئ الأمر ماذا يريد منه والده! استطرد الأب: "أنت من ستقوم بالجولة الثانية وستلعب بدلًا مني، فأنت ترى أنني لم أعد قادرًا على اللعب أو المنافسة؛ فالخصم شرس ويريد الفتك بي ولا منقذ غيرك، فرصتي ضائعة أما أنت ففرصتي الثانية".

تعجب الابن وقال في هدوء: "أتريدني يا أبي أن أخوض معركتك بدلًا منك؟ أتريد أن أخوض حربًا ليس لي بها شأن؟! هذا حلمك أنت وليس أنا!"

رد الأب: "نعم أعلم ولكن أنت فرصتي الثانية كما قلت لك من قبل، أنت جئت الحياة لتكون مثلما أريد، لتكمل مشواري، لتتبنى أفكاري، لتكون مني نسخة أخرى أقدر بها على هزيمة الخصوم".

"إذن يا أبي أنت تعتبرني مجرد فرصة لك في الحياة، تعتبر وجودي هو استكمال لحياتك ولمعركتك، تقول إن وجودي هو امتداد لأحلامك وآمالك في الحياة، تستخدمني لهزيمة خصمك أنت وليس خصمي لتحقيق حلمك أنت وليس حلمي، لتنال هدفك وليس هدفي".

هتف الأب: "لماذا أشعر أنك متعجب من كلامي؟ ما الابن إلا امتداد لأبيه".

قال الابن: "لكن هذا ليس معناه يا أبي أن تكون معركتي هي نفس معركتك، ولا حياتي هي حياتك، ولا مرادي هو مرادك. أنا إنسان آخر وليس نسخة مكررة من أحد. أنت من يجب أن تحترم كياني ووجودي، أنت من يجب أن تعرف أنني ابنك وليس ملكية خاصة لك".

تعجب الأب: "هذا يعني أنك لن تحارب من أجل حلمي، لن تخوض معركتي؟"

تذكر الأب عندما كان يجلس مع ابنه صغيرًا، يغرس به أحلامه الخاصة ويحاول أن يحمسه من أجل تلك اللحظة، يتذكر جلستهما معًا في الشرفة في ذات يوم وهما يحتسيان الشاي حينما أكد له الابن أنه سيكون في ظهره، لن يتركه أبدًا، سيكون سندًا وعونًا له أينما أحتاجه.

هل نسي ابنه وعوده له؟ هل سيتخلى عنه الآن؟

قال الابن: لا يا أبي، فالحياة تعد لي معارك أخرى، أنا أريد أن أخوضها بمحض إرادتي لتحقيق ما أريد أنا وليس لتحقيق ما تريده أنت.

عذرًا أبي، أنا كيان حر، الله خلقني أن أعينك وأكون سندًا لك وامتداد لك ولكن ليس لأحقق لك ما لم تقوَ على تحقيقه، لن أدخل معركة لا تخصني ولن أحارب في حلبة ليست لي.

أتذكر وعودي لك جيدًا، أتذكر كل كلمة قلتها لك في جلستنا معًا في الشرفة، أفهم جيدًا ما تعاهدنا عليه معًا بينما نتسامر كعادتنا كل يوم قبل النوم في الشرفة.

شهدت الشرفة على وعودي لك، شهدت على تعهداتي التي لم تكن تفهمها صحيحًا.

أنا حزنت لخسارتك لهدفك ولحلمك، لكن أنت فقط من استسلمت للظروف ولم تحارب كما يجب. أنا سوف أخوض حربًا في حلبة أخرى، وسوف أهزم خصمي لأنني أعرف فرصتي الثانية هي أنا، هي مثابرتي وإصراري، وليس أحدًا آخر.

الجدران القديمة!

"الذكريات بضاعة لا قيمة لها إلا في خزانة صاحبها".

أحمد خالد توفيق

كانت تخشى فقدان ممتلكاتها الفريدة التي تزيدها يومًا عن يوم، لا تتصور يومًا أن تعيش بدونها؛ فالحياة بالنسبة لها هي تلك الثروة التي بمجرد النظر إليها تشعر بالراحة والطمأنينة والأمان الغريب.

هي امرأة في العقد السابع من عمرها تقطن في منزل ليس بصغير، ولكن يشعر كل من يزورها من أقارب وجيران أنه صغير كجحر الفأر الذي صعب الهروب منه بينما هي تعتبره من الجنة على الأرض. المنزل به حجرتان وصالة مع مطبخ ودورة مياه صغيرة، فمساحته بالنسبة لسيدة مسنة كافية وزيادة كما يقولون.

كانت جارتها "شكرية" تطمئن عليها بين الحين والآخر لتشتري لها بعض المستلزمات التي تحتاجها تلك السيدة. تفتح لها السيدة "حفيظة" وترحب بها وتأخذ منها المشتريات وتدعوها للدخول ليتسامرا قليلًا؛ لأن "حفيظة" كانت أرملة وحيدة، سافر أولادها للعمل بالخارج نظرًا للظروف المادية الصعبة، يقومان بإرسال مبلغ من المال شهريًّا لتعيش منه تلك السيدة الوحيدة. فكانت تعاني من الوحدة والعزلة في سنها الحرجة، ولا تجد ونيسًا غير بعض الوقت الذي تستمع فيه إلى أخبار الجيران من "شكرية" التي تجلس معها نصف ساعة كل أسبوع بعد أن تجلب لها مستلزماتها من السوق.

كانت" شكرية" تريد أن تتهرب من تلك الجلسة في بيت العجوز، وتحاول أن تفلت منها دون أن تدخل بيتها، ولكن دون جدوى؛ لأن السيدة "حفيظة" تصر كل الإصرار على دعوتها وتسليتها قليلًا. ولم تكن تعرف "شكرية" بالضبط ما السبب وراء رغبتها في الهروب من تلك الجلسة، فهي تتحجج بأن لديها مهمات أخرى ولديها بيتًا وأولادًا منتظرين لها، لكن هي تعلم جيدًا أنها حجة واهية، حيث تستمتع هي بنميمتها مع الجارات الأخريات وتطول الأحاديث.

لم تملك غير أنها توافق على مضض عطفًا على السيدة التي تعرف أنها تعاني الوحدة والكبر ولا تجد من يشاركها الحديث والتسامر. تدخل معها وتسعد "حفيظة" بها وتحتفي بقدومها وتسألها: "هل أعد لك الشاي معي بينما تحكين لي آخر الأخبار عند أم مجدي".

هل انتهى الشجار بينها وبين زوجها؟ وماذا عن "أم شوقي"؟ هل ما زالت على خلاف مع زوجة ابنها؟ لم تكملي لي ماذا فعل البقال "بهجت" مع أم شيماء بعدما لم تقدر على أن تسدد ديون شرائها منه؟ أخبريني، ماذا حدث بعد؟

دلفت "شكرية" المنزل محاولة ألا تتعثر في الطرقات المعوجة التي تؤدي بك إلى الصالة، وشكرت ربها أنها لم تتعثر كالمرات السابقة.

جلست وأخذت تقص للسيدة حفيظة الأحداث الجديدة وكأنها تحكي مجمع حلقات المسلسل التركي.

كانت الجارة تريد أن تغادر سريعًا، فهي تشعر بعدم الراحة في ذلك المكان؛ فهو شديد الضيق رغم أن السيدة تسكن الدار وحدها ولا شريك لها فيه. تشعر وكأنها تختنق كلما طال الوقت، ولا تعلم السبب ولكنها نظرت حولها أثناء الحديث وحاولت أن تستكشف الذي اعتادت عيناها عليه. فهي تجلس مع السيدة حفيظة في هذا المكان مرارًا ولكن لم تكن تلتفت لما حولها بدقة وتمعن إلا هذه المرة.

وقعت عيناها على مجموعة من الحقائب والكراتين القديمة التي تحوي الكثير من الملابس والأشياء القديمة التي كادت أن تبلى. ووجدت في زاوية أخرى، مجموعة هائلة من الجرائد الضخمة والكتب الدراسية القديمة. ولما مدت بصرها إلى داخل الغرفات وجدت المنظر ذاته بالإضافة إلى قطع أثاث قديمة موضوعة فوق بعضها لعدم وجود مساحة كافية لها.

حتى الشرفة الضيقة التي تعتبر منفذ البيت للخارج كان بها الكثير من الأشياء المخزنة بها، لم تسلم شرفتها من الأكوام أيضًا، أليس كان من الأفضل أن تنظفها لتجلس بها تستأنس وتخرج من وحدتها ولو لساعات.

شعرت أنها وسط جدران قديمة تكسوها أكوام من الأشياء البالية.

تجرأت الجارة وجربت أن تسأل السيدة "حفيظة" عن تلك الأشياء التي تزحم منزلها وتقلل مساحته غير مبالية لحرجها وترددها الذي حاولت أن تتخطاه هذه المرة من كثرة ضيقها بالمكان.

"ما هذا كله؟ ما هذه الأكوام التي تحتفظين بها على مر السنوات ولا تريدين التخلي عنها أبدًا؟" نظرت السيدة "حفيظة" بتعجب، فهي المرة الأولى التي تسأل فيها الجارة عن تلك الأكوام، فسكتت. فسارعت الجارة بالكلام: "لا أقصد التدخل ولكن لي سنين أتي إليكِ وأجد الأكوام تزيد يومًا عن يوم حتى ضاق البيت بكِ ولم يعد يسع أحد أن يمشي به. فكل من يمشي به ينزلق أو يتعثر بتلك الأكوام التي تلتهم كل المساحات في المنزل وتتعدى طرقات المشي والسير في البيت".

فردت السيدة حفيظة: "إنها تخصني وأنا مستريحة هكذا! لا أقدر على التخلي عن أي شيء منها، بل أزيدها كل يوم، ويزداد البيت ازدحامًا ولكن أنا سعيدة هكذا، كلما تعثرت في شيء أو ازداد المنزل ضيقًا وأقرر أن أتخلى عن شيء، لا أقوى على تنفيذ ذلك وأعدل عن قراري".

تساءلت الجارة: "هل بها أشياء ثمينة أو غالية؟" ضحكت قائلة: "لا، لا، ليس هناك أي شيء غالٍ أو ذو قيمة، كلها أشياء قديمة، ملابس أولادي القديمة التي أحتفظ بها منذ طفولتهم وملابسهم وهم شباب وملابس زوجي رحمة الله عليه".

أيضًا كتب الأبناء القديمة الخاصة بمدارسهم، نعم ما زلت أحتفظ بها ولا أريد أن أتخلص منها! هناك بالغرف أيضًا قطع أثاث قديمة وأيضًا الجرائد التي كان يقرأها زوجي يوميًّا. كل شيء يعود للزمن القديم، هو غالٍ بالنسبة لي وذو قيمة كبيرة.

تعجبت الجارة من كلام السيدة حفيظة وبادرت بالسؤال الذي لح عليها: "لماذا كل هذا؟ هذه أشياء عفا عليها الزمن، ليست لها قيمة والاحتفاظ بها غير مجدٍ".

قالت السيدة حفيظة: "نعم، أعلم ولكن هناك شيئًا بداخلي يمنعني من التخلي عنهم، أشعر أنها جزء مني، أشعر أنها تستغيث بي كلما قررت أن أستغني عنها وألقيها بالخارج، لا أعلم إن كان ذلك نابع من قسوة وحدتي أم ماذا؟ بعد ما مات زوجي وسافر الأولاد وتركوني أعاني ألم الوحدة، فشعرت أن تلك الأشياء البالية هي ما بقي لي من الزمن، هي تذكرني بكل ذكرياتي الغالية التي عشتها مع أسرتي".

نهضت من جلستها وأتت لي بملابس لطفل صغير وقالت: انظري، هذا كان لابني أشرف عندما كان في الخامسة، كان يحبه كثيرًا ويريد أن يرتديه طوال الوقت، في ذات يوم لعب به كثيرًا حتى طاله الطين والقاذورات وغضبت منه بشدة.

أما عن تلك الجرائد عندما أتنسم رائحتها في الصباح الباكر مع سطوع الشمس ونسمات الهواء الصباحية الباردة التي تدغدغ أنفي، أتذكر زوجي وهو يقرأ الجريدة ليعرف الأخبار قبل الذهاب للعمل، أتذكر وجوده بجانبي وحبه لي.

أتنظرين ذلك الأثاث القديم؟ أحتفظ به لأتذكر جلسة أبي عليه عندما كان يزورني ويحب أن يجلس على ذلك الكرسي بالذات لأنه يشعر بالراحة عليه! أنظر إليه فأتذكر عبير الحنان والأبوة والسند.

كل شيء لديَّ هنا له ذكري لا أريد أن أغادرها ولا أريد أن أترك ذكرياتي تضيع مع ضياع هذه الأكوام.

واستكملت حديثها: أتعلمين، منذ فترة جاءت ابنة أخي زارتني لتطمئن على، وقتها لم تزرني منذ سنوات، ولما رأت المنزل قالت لي إني أعاني من مرض اسمه الاكتناز القهري. ونصحتني بالعلاج منه ولكن أنا لا أرى أني مريضة، فلم أفهم كلامها، لكن أنا سعيدة هكذا، أشعر بالمرض والضيق فقط عندما أفكر في فقدان هذه الأشياء.

نظرت الجارة نظرات غير مفهومة وحائرة وكأنها لم تفهم ما قيل ولكن شعرت بآلام الوحدة التي تعاني منها هذه السيدة، فاستبدلت بوحدتها الاحتفاظ بدليل دامغ يدل على أنها لم تكن وحيدة يومًا، كانت سعيدة، كانت لديها أسرة وأبناء، كان لديها حياة، كان تستأنس بالحب والدفء، وعندما زالت من حولها تلك الحياة المفعمة بالنبض، أصرت على أن تتمسك بنبض ضعيف يسري في كل تلك الأكوام، أصرت أن تحتفظ برائحة الأولاد الصغار في الملابس، بعبير الذكريات الموجود في الجرائد والأثاث والكتب.

ولكن هل فقط المادة الملموسة هي التي تحتفظ بالذكريات؟ هل هي الدليل الوحيد على أننا عشنا أيامًا سعيدة؟

هل لو تخلصنا من كل شيء قديم وألقينا به في المهملات، ستزول معه ذكرياتنا وسعادتنا؟

هل البيوت والأركان والأعمدة هي فقط ما يحوي شريط ما حدث؟

أم لدينا حجرات وأعمدة في قلوبنا تحوي كل ذكرياتنا الثمينة وتنتقل معنا أينما كنا، فهي في أعمق نقطة في وجداننا ولا يمكن أن نتخلى عنها.

لا نحتاج لدليل ملموس للذكريات، لا نحتاج أن نحتفظ بالجدران، لا نحتاج أن نتشبث بالقديم، فهو محفور بداخلنا أينما ذهبنا.

يهمني اسمك!

"من يحيا متوافقًا مع نفسه يحيا متوافقًا مع الكون".

ماركوس أوريليوس

منذ ولادتي كنت طفلًا مميزًا، يقال عني طفل ذكي وخلوق وغير ثرثار أو مشاغب، كنت محبوبًا من جميع أفراد الأسرة. كبرت وسط أسرة جميلة تنعم بالدفء والحب الأسري الذي - في الغالب - انعدم في هذا الزمن الصعب.

مرت السنون وأنا تفوق في دراستي حتى أصبحت مهندسًا في إحدى الشركات المعروفة، كانت حياتي هادئة، ولم يكن شيئا ينغص عليَّ حياتي إلا شيئًا واحدًا وهو اسمي! اسمي هو الهاجس الذي طاردني منذ الصغر، وظل يؤرقني ويخطف فرحتي، فلا شك أنه كان عائقًا لي في كثير من الأوقات، لم أسلم من التنمر من زملائي في الفصل، كانوا يهزءُوا من اسمي طيلة الوقت، الأمر لم يقتصر فقط على الزملاء والأطفال بل تطور إلى تعرضي للتنمر من المعلمين والمعلمات الذين يستغربون الاسم ويعلقون عليه وبالتالي أتعرض لفواصل من الضحك والتسلية على هذا الاسم طوال اليوم الدراسي! كانت أوقات تسلية وضحك للزملاء ولكن كانت - بالنسبة لي - جمرات مولعة تنهش فؤادي عندما أتعرض لذلك.

ترسبت بداخلي عقدة كبيرة أخذت تنتقص من ثقتي في نفسي، فلم يكن أحد يلتفت لذكائي ومهارتي أكثر من اسمي، هل كان الاسم أكثر جاذبية من مهاراتي؟ قضيت ماضيَّ راكضًا في دائرة مفرغة في محاولة إثبات أن شخصيتي هي أهم من اسمي، كياني هو الأعلى صوتًا وليس الاسم ولكن من الواضح صراخي كان مجرد همس بالمقارنة مع علو دوي اسمي.

لا أعلم سببًا واضحًا جعل والداي يطلقون عليا هذا الاسم غير كونه اسم لشخص يدينون له بالوفاء؛ فقرروا أن يصبوا هذا الوفاء على هامتي لأتحمل أنا تلك المصيبة وحدي بسبب امتنانهم ووفائهم! لم يكن هناك أي طريقة أخرى لرد الجميل غير تلك الطريقة الغريبة التي جعلتني أعاني في حياتي.

كان سبب التسمية هو جدي الذي أراد والدي تخليد اسمه فسماني على اسمه ولم يراعِ فروق الزمن واختلاف العصر، أعرف أنه ندم ولكن لن يجدي الندم، نصحني الكثير برفع قضية لتغيير الاسم، وإثبات تضرري من اسمي وسأحصل على تغيير الاسم بسهولة، لم أعلم سبب عدم إقدامي على هذه الخطوة؛ فكنت أؤجل دائمًا ذلك إيمانًا مني بأن هناك بدائل أخرى لكن يبدو أن هذا هو الحل الوحيد لأنهاء أزمتي.

للأسف، كان السؤال التالي لـ "ما اسمك؟" هو "ما سبب ذلك الاسم؟"

كنت أمل من كثرة سماع ذلك السؤال الذي اعتدت الإجابة عليه أيضًا بكل فظاظة: "اسألوا والديَّ؟"

يظل الاسم يأخذ حيزًا من حياتي ومن طاقتي، ألهث في محاولة بائسة أن أنتصر على محو تأثيره، ولكن دون جدوى.

كنت أحب أغنية "حدوتة مصرية" لمنير، كنت أحب تلك الكلمات التي يقولها بعذوبة صوته "لا يهمني اسمك لا يهمني عنوانك، يهمني الإنسان ولو ما لوش عنوان".

كنت أريد أن أمشي رافعًا تلك الكلمات فوق رأسي ليكف الناس عن مضايقتي، كنت أحبها جدًّا، أشعر أنها تعبر عني، عن أزمتي، يتغنون الناس بها ويحبونها مثلي، لكنني أشعر بصوتهم يصرخ في أذني، مغطيًا على صوت الأغنية الأصلي، فتأتي تلك الكلمات "لا يهمني اسمك لا يهمني عنوانك"، أسمعها منهم عكس الكلمات الأصلية، أسمعهم يقولون "يهمني اسمك".

التحقت بكلية أحلامي وتخرجت فيها وأصبحت مهندسًا بشهادة معتمدة من الجامعة. تحقق حلمي وبدأت رحلة البحث عن عمل، وبالطبع الاسم كان يسبق دخولي لحجرة التقييم لأي عمل، كان رؤساء العمل يقرأوا اسمي في السير الذاتية التي أتقدم بها للشركات وينبعث بداخلهم الفضول ليعرفوا من صاحب هذا الاسم العجيب، فيستدعونني للمجيء لا لاستلام العمل بل لإشباع رغبتهم في الفضول.

ظللت فترة أعاني من اسمي وقررت ألا أتقدم لأي عمل وأجلس بالمنزل أندب حظي اللعين، حظي الذي تجمع سوءُه في اسمي، هو سبب كل النكبات التي أمر بها.

وجاءت اللحظة الحاسمة في حياتي حينما قررت طرد العقدة من عقلي، انبعث مني الاسم دون خجل أو تردد، صرت أردد اسمي دون أي اكتراث لعلامات الدهشة كرد فعل طبيعي ينتاب من يسمعه! قررت ألا أركز مع اسمي وأن أوجه كل تفكيري إلى عملي وإنجازي.

ومرت الأيام.

فتحت باب السيارة ونزلت منها وتوجهت إلى المكتب، اليوم سيكون نقلة كبيرة لاسم شركتي التي قررت أن تحمل اسمي لتكون ماركة مميزة وسبب فخر لي على الدوام، بعد عدة دقائق سأقوم بتوثيق العقد الذي ينص على فتح فروع عدة في معظم الدول في العالم لشركتي لنقوم بتنفيذ أقوى المشروعات التي تحمل تصميماتي لكل المؤسسات والمنشآت العالمية.

كنت أكافح لسنين وأعمل طوال الوقت لأصل إلى أحلامي التي كانت أبسط من ذلك، لم أكن أتخيل أن سيصل بي الحال إلى أن يكون اسمي ماركة مسجلة عالمية وكأن الشيء الذي كنت أخجل منه تحول ليحمل بصمتي المميزة إلى كل العالم.

المواجهة، التقبل، التصالح مع النفس هو ما حوَّل الاسم من محط السخرية إلى منبر الإعجاب والتميز.

وحينما واجهت أنا نفسي وتقبلت اسمي تبين لي أن الكل يجب أن يتقبل، فالثقة يجب أن تنبع من داخلي أولًا، يجب ألا أتعلثم بينما أنطق اسمي، يجب أن تكون نظرات عيني قوية تزهو بالفخر والثقة، يجب ألا تهتز معالم وجهي، وأن أكون ثابتًا قويًّا معتزًّا بنفسي وباسمي، حتى يفعل الآخرون مثلي، عرفت أن السر هو أنني مرآة أعكس للناس ما أشعر به فيعود إلى من خلالهم.

وصعدت في المصعد الزجاجي ودخلت مكتبي بكل زهو ووقفت أمام النافذة متأملًا المنظر أمامي من المباني الجميلة والسيارات في الشارع، مذكرًا نفسي بالماضي وكيف تحول كل شيء نتيجة لما قرر عقلي أن يغير مسار تفكيره.

بينما أنا غارق في خيالاتي، سمعت صديقي يناديني بكل قوته، فقت من غفلتي ووجدت نفسي في شرفة منزلنا في شارعنا وصديقي جاء ليقطع عني حلمي الذي كنت غارقًا فيه، الشرفة التي خرجت إليها لأشكو لنفسي ما أشعر به، خرجت إليها لأتخذ قراري الجديد، لأقرر أنني سأتقبل اسمي وسوف أغير طريقة تفكيري، سأحقق

حلمي، وسيكون اسمي سر تميزي بجانب قدراتي، سأحقق الحلم الذي كنت غارقًا فيه الآن وأخرجني منه صديقي.

مصارحة حرة!

"قل للمرء إنه شجاع وسوف تساعده على أن يصبح كذلك".

توماس كارليل

"أن تخطو خطوة واحدة في طريق سهل ممهد، فتجد كل من حولك يصطفون على الجانبين ويملأ الفخر عيونهم لينظروا لك فرحين بتلك الخطوة الصغيرة كالطفل الذي يتمرن على المشي ويخطو أول خطوة وحده دون مساعدة الأهل، فينبهروا به ويصفقوا له تصفيقًا حارًّا مشجعين إياه على تكملة خطواته، هذا أفضل حالًا- بالنسبة لي - عن أن تجري أميالًا وتحقق إنجازات ولا تجد من يصفق لك أو من حتى يلتفت لك ليشجعك على استكمال النجاحات، حتى كاتبي المفضل "أنيس منصور" الذي أحب أن أقرأ كل كتاباته، كانت تضيع فرحته عندما يجد تفوقه ونجاحه غير ملفت وغير مدوٍّ لمن حوله، كان يحزن لأنه لا يجد من يفرح معه أو يشجعه أو يقول له كلمة ثناء عندما كان صغيرًا في دراسته".

بعدما كتبت تلك الكلمات في مذكرتي أخرج بها طاقة غضب عما شعرت به من مرارة انتابتني الليل بأكمله، لم أقدر أن أنام أو أغمض جفوني دون أن أفكر فيما حدث. حاولت أن أعود مجددًا إلى فراشي في محاولة بائسة للنوم ولكن دون جدوى، فالنوم هرب مني تلك الليلة ليتركني وحدي أصارع مع أفكاري! لقد ظننت أنني عندما أكتب ما أشعر به سوف يذهب عني الغضب وأهدأ رويدًا، لكن كتابة مشاعري لم تعطني الراحة المنشودة للأسف.

جلست على المكتب وقررت أن أتصفح هاتفي مجددًا الكلمات التي هزت كياني وضربت وجداني وشلت عقلي عن التفكير.

قرأت عبارات كفيلة أن تجعل أي إنسان يعاني من أمراض نفسية عنيفة، يكره الحياة والناس والدنيا كلها.

لم أقدر على الاستمرار في قراءة تلك الرسائل مجددًا فقررت الهروب والوقوف في الشرفة قليلًا لأهرب من وقع تلك الكلمات عليَّ مجددًا.

نظرت وإذ وجدت جاري "لؤي" جالس في حجرته يطل من الشباك، وقد رمقني ولوح لي بيده كتحية وثغره باسم وكأنه غير متكلف التبسم.

سألت نفسي: "هل هذا هو "لؤي" الذي أرسل لي كل هذا الكم الشنيع من التشويه والغضب والكراهية؟ كيف يقدر أن يبتسم لي وهو مرتاح النفس؟ كيف يقدر أن يكتب هذا الكلام لي وعندما يراني يغمرني بالسلامات؟ نحن جيران منذ كنا أطفالًا، تشاركنا لحظات طفولية كثيرة، قد قمت معه بدور الأخ بعد وفاة والده، ووقفت بجانبه أسانده في محنته عندما لم يجد وظيفة، حاولت أن أجد له عملًا بواسطة من أحد الزملاء. أهذا الذي يكنه لي بعد كل هذا العمر؟"

أتذكر بداية نشأة ذلك الموقع التي تم ابتكاره من عدة سنوات ليقوم الناس بإرسال رسائل لبعضهم دون معرفة هوية المرسل! الموقع الذي يعطيك الحرية لتقول رأيك بصراحة إلى كل من تريد ودون أن يعرف أحد من أنت ولماذا قلت ذلك! من المفترض أن هذا الموقع تم إنشاؤه لتشجيع الآخرين ولإرسال الرسائل المشجعة التي تبعث على السرور والامتنان، ولكن للأسف فشل هذا الموقع فشلًا ذريعًا نتيجة أنه تم استخدامه بالطريقة الخطأ من

قبل الناس. لقد دمر حياة الكثير من الشباب نتيجة لما تلقوه من كمية هائلة من الطاقة السلبية التي لم يقدروا على تفاديها، بل وقعوا في فخاخها.

ومن وقتها، تم افتتاح حلبة المصارحة الحرة عندما قرر الجميع أن يشاركوا دون أن يدركوا ضرر ما سيفعلونه بعضهم مع بعض.

بدأ الجميع أن يرسلون لأصدقائهم كلمات سلبية لينعتوهم بأقبح الصفات، جاءت تلك الوقاحة عندنا استغلوا فكرة أن الموقع لا يذكر من يكون المرسل، فاطمأنوا لتلك الفكرة وأخذوا يخرجون كل سيئ بداخلهم لينهش كل من حولهم.

سمعت كثيرًا أن هذا الموقع أثر تأثيرًا سلبيًّا على الصحة النفسية لكثير من الشباب، وهناك من أستمد صورته الذاتية من تلك الرسائل البغيضة التي تحوي الكراهية والحسد والبغضة التي ملأت القلوب.

لا أعلم لماذا امتلأت تعليقات الناس ورسائلهم على السوشيال ميديا بكل هذا الكم من الكره والبغض والسواد، لماذا تغير الناس عن الأزمنة القديمة، لماذا سافر الذوق والكياسة من زماننا دون رجعة؟ لماذا أصبحنا نستسهل قول الكلمات السيئة لبعضنا وكأننا نخرج طاقات وشحنات غضب تخنقنا، فنصبها على الآخرين؟

في الحقيقة منذ سنوات قررت أن أتيح الفرصة لجميع أصدقائي نظرًا لفضولي الكبير في أن أعرف آراء أصدقائي عني، فأنا شخصية محبوبة من الجميع وكنت أظن أنني أعرف ما تطويه النفوس نتيجة لسلوكهم الكريم والممتن معي.

استقبلت كل الرسائل ووجدت الرسائل معظمها يحوي إساءات وشتائم وكراهية لم أقابلها في حياتي من قبل.

كدت أجن في تلك اللحظة وأفقد ثقتي في نفسي، أوشكت على الانهيار، كنت غير قادر على مواجهة ما حدث، حزنت لأيام قليلة وحاولت أن أستجمع شتات نفسي التي تمزقت مما حدث؛ فليس سهلًا أن تحتضن نارًا ولا تتوجع، كانت نارًا ولست أقول مجازًا، عندما تجد كل من تظن أنه يحبك ويقدرك يكن لك البغض والغيرة والأذى بينما أنت تتعامل بحسن النية، حاولت أن أغير ذلك الفكر حتى أستأنف حياتي ولا أهدمها، حاولت أن أقنع نفسي أن هؤلاء الذين أرسلوا لي تلك الرسائل السوداء - فهي سوداء لون ما عانيت منه بعد ما قرأتها - هم حاسدون وتملكتهم الكراهية، فظنوا أنهم عندما يبثونها لمن حولهم سوف يتخلصون من فشلهم أو من مشاكلهم.

ثم قويت نفسي بهذا الكلام واستعدت حياتي من جديد غير مكترث لهذا التطبيق الذي كاد أن يدمر حياتي، لم أشغل بالي حتى بهوية هؤلاء أو للتعرف عليهم.

مرت الأيام وعدت السنون وحدث ما لم يكن متوقعًا، عندما علم مؤسس الموقع بالكوارث التي سببها، قرر بعد عدة سنوات أن يكشف الستار عن هوية كل من استخدم هذا الموقع وقام بإرسال تلك الرسائل. وهنا كانت النكبة الكبرى، فاكتشف الزوج الكلام التي أرسلته زوجته له عندما كانت غاضبة منه، واكتشف الصديق رسائل صديقه البغيضة، واكتشف الأشخاص نفاق الأقرباء والأصدقاء، وعرف المدير ما يكنه له الموظفون سواء كانوا محقين أو لا.

تكشف كل شيء ولم يكن أحد يتوقع أن هذا ما سيحدث في المستقبل ويكون كل شيء على مرأى الجميع ومسمعهم، وكأن المؤسس أراد لذلك الموقع أن يقول لكل شخص استخدم الموقع "استجمع شجاعتك وصارح

كل من حولك أنك أنت من تقول لهم ما قلته، لا تتخفى وراء الشاشات وتسبب الأزمات للغير بسبب ما تبثه من سلبيات".

عندما علمت بهذه الخاصية الجديدة التي أضيفت للموقع، قررت أن أدخل وأعرف، في الحقيقة تملكني الفضول بل داهمني الخوف للحظات خوفًا من أن أصدم أو أحزن لما سأراه، ولكني بعدما قتلني التردد، قررت أخيرًا أن أفتح الموقع وأطلع على الحقيقة.

عرفت أن جاري "لؤي" يبغضني ويغار مني، وأيقنت أن زميلي في العمل لا يطيقني بينما يتعامل معي مظهرًا عكس ذلك تمامًا، وجدت رسالة من حبيبتي القديمة التي أحببتها من كل قلبي تنعتني بكل سوء وتجرحني بكلامها الفظ الذي لن أقدر على نسيانه أبدًا.

ظللت أتابع الرسائل بغم تملك على قلبي، ولم يكن لدى عقلي حجة جديدة ليقنعني بها كالمرة السابقة التي جعلني أتناسى ذلك الكلام وأمضي في حياتي قدمًا.

وتساءلت متحيرًا: "الآن سوف يستخدم الناس الموقع بصورة مختلفة؛ فهم يعرفون أن الرسائل تصل إلى الآخرين ولكن بخاصية جديدة وهي معرفة هوية المرسل، بالطبع سوف تتغير الرسائل السلبية، وتتغير الصورة وسيرسل كل واحد إلى الآخر أشعار ومحاسن".

حقًّا يخشى الناس الفضيحة وليس الرذيلة.

أحسست أن استخدام ذلك التطبيق أو الموقع على هذا نحو هو شيء إيجابي، وإن كان البعض يعتبره نفاقًا، ولكن أنا أعتبره تشجيعًا وطاقة إيجابية تبعث على تحقيق المستحيل مثلما تقر ظاهرة تأثير بجماليون[2] الشهيرة التي قرأت عنها من قبل.

لم يكن أمامي سبيل غير أن أنسى أي كلام حولي وأكمل ما بدأته ولا أشتت نفسي وطاقتي من أجل أحاديث وآراء الآخرين.

فقررت أن أنسى ما حدث مجددًا، وأن أقوم بنحت تمثال[3] لنفسي يعبر عن صورتي التي أريدها، وأن أبث فيه كل طاقة مشرقة، سأظل أنحت فيه لساعات، سأبات أقول له كل شيء جميل، سأشجعه وأقويه، سأقول له: "أنت جميل، أنت حقيقي بكل ما فيك".

لن أتراجع عن دعمه حتى أراه يفتح جفونه وترمش عيونه، وينظر هنا وهناك ويجاوبني بكل ثقة: "نعم! أنا حقيقي، ثقتك في محلها."

---

2 - هو شكل من أشكال "النبوءة ذاتية التحقق"، وهذا يحدث عن طريق إقناع الأشخاص بقدراتهم الإيجابية، وبالتالي يقومون بأداء أعمالهم بناءً على هذه الأفكار الإيجابية، والتي تؤدي إلى النجاح كنتيجة. فاقتناعهم بالأفكار الإيجابية يؤدي إلى تحققها في النهاية.

3- قصة تمثال بجماليون، حسب ما ورد في الأساطير اليونانية، قام بجماليون، ملك قبرص، بنحت تمثال عاج للمرأة المثالية، وكان التمثال جميل جدًّا حتى وقع بجماليون في غرامها وتمنى أن تصبح حقيقية حتى وهبتها الإلهة فينوس الحياة بالفعل، وأصبح التمثال حقيقيًّا.

التثاؤب المعدي

"التقليد حالة من الانتحار".

رالف والدو إميرسون

لم تمضِ سنوات قليلة لي في العمل حتى أتت زميلتي "منار" لتجلس على المكتب المجاور لي. كانت "منار" زميلة هادئة وبشوشة، تحب عملها وتحسن التعامل مع الزملاء والزميلات. لم تمضِ فترة وجيزة إلا وأحبها الجميع، بل نالت ثقة المديرين. كنت في تخبط بين مشاعري نحوها؛ أحيانا أشعر أني أعجب بها كثيرًا وبشخصيتها الودودة، وأحيانًا أشعر أنني أمقتها بشدة لأنها تجعلني أشعر أنني بعيدة عن أضواء المحيطين، خاصة أنهم يفضلون التعامل معها عني.

أعلم أنني أتكلم بصوت عالٍ إلى حد مزعج، تصرفاتي بها بعض الخشونة، وأفتقد في بعض الأحيان إلى الكياسة والتعامل بلباقة، ولكن من حقي أن أحصل على محبة الجميع حولي أيًّا كان، بماذا تمتاز عني حتى يحبها الجميع ويميزوها؟! أحسدها حين أرى نظرات الإعجاب وأحاديث الإطراء تقال لها، أشعر أن الأكسجين ينحسب من أمامي ليذهب متهللًا إلى أنفها ليتركني أختنق وأموت حسدًا وحنقًا وغيظًا، حتى الأكسجين يمقتني ويحب فكرة أن تستنشقه هي ولست أنا. الغيظ يتملك مني حينما أراها قادمة صباحًا في قمة الجمال والأناقة والبساطة، أتيقن في داخلي أنها جميلة، ولكن عقلي يقنعني أنها غير ذلك ويرفض الاعتراف بذلك.

لو اعترف عقلي بحسن هيئتها أو خلقها، فسوف يعقد كياني محاكمة ليبرز ما فيَّ من عيوب ويقارن بيني وبينها ويحكم بتفوقها عليَّ، وأنا أرفض هذه الفكرة تمامًا.

في يوم ما فكرت أسألها من أين تحضر ملابسها الأنيقة التي يثني عليها الجميع، سألتها بدون أدنى كلمة إطراء واحدة لأنني لا أحتمل أن أقول لها أي شيء جيد، وأكون ضمن لائحة المعبرين عن إعجابهم لها، وعجبًا بكل سهولة وسلاسة أخبرتني! توجهت مباشرة بعد انتهاء ساعات العمل إلى الأماكن التي دلتني هي عليها، وأخذت أبحث عن نفس الملابس التي ترتديها، بل ذات الألوان.

أعلنت لنفسي بكل وضوح: "أريد أن أكون مثلها، أريد أن أحظى بما تحظى به، لست أقل منها في شيء". لم أكن أفهم أن ليست الملابس التي ستجعلني أنعم بنظرات الإعجاب التي تنعم هي بها دومًا.

شعرت بسعادة تغمرني حينما اشتريت كل ما راق لي، أو بمعنى أصح كل ما راق لها أو أحضرته مسبقًا. ذهبت اليوم الثاني إلى العمل متحمسة وأشعر بزهو، لأنني قمت بارتداء ذات الملابس ومنتظرة الإطراءات التي تسمعها زميلتي "منار" يوميًّا من الزملاء.

أثني عليَّ البعض متعجبًا التغير الذي انتابني، وهناك من نظر لي بصمت وتعجب، وهناك من قال لي هذا نفس ما ترتديه "منار".

رأتني "منار" وعلى وجهها علامات الدهشة قائلة: "جميلة جدًّا ملابسك اليوم، هل ذهبتِ إلى المكان الذي قلت لك عنه بهذه السرعة؟"

كانت تعرف ذوقي في الملابس التي أرتديها يوميًّا ولم أكن أستغني عن البنطال الجينز العادي جدًّا والتنورات ذات الألوان الغامقة وبعض القمصان التي تشبه بعض الشيء القمصان الرجالية.

أنكرت بالطبع وقلت لها: "لا لم أذهب بالطبع بهذه السرعة، ولكن يبدو أن اختياراتنا متشابهة في تنسيق الملابس".

بدأ يزيد تعجبها مني يومًا بعد يوم ولكني لا أكترث. أنا لا أريد أن أقلدها، فأنا لا أراها أفضل مني في شيء. كل ما في الأمر أنني أرى الجميع معجبًا بها وأريد أن يرمقني الجميع بنفس نظرات الاستحسان والإعجاب.

وبعد مدة حاولت أن أكتسب أيضًا بعضًا من صفاتها الشخصية ولم أجعل الأمر مقتصرًا فقط على المظهر الخارجي. حاولت أن أتبع طريقتها الودودة واللطيفة مع الناس، ولكن كان هناك شيء مختلف بعض الشيء، وهذا ما جعلني لا أحصد النتيجة المنشودة. كانت طريقتي بها بعض التصنع إلى حد ما؛ لأنني – كما قلت من البداية – أتعامل ببعض الخشونة مفتقدة المرونة وبساطة الطبع. أعلم أنه من الصعب أن يعترف أحد بما فيه من طباع سيئة بهذا الوضوح، ولكن حفظت عن ظهر قلب آراء الآخرين عني، وصرت أرددها عن نفسي إلى نفسي.

كنت أفتقد منذ الصغر وجود القدوة والمثل الأعلى في حياتي، كانت عائلتي كلها مثلي، أو أنا التي نشأت مثلهم وعلى شاكلتهم، البيت يملأه الصخب والصوت العالي، لم يكن أمامي قدوة أحاول أن آخذ منها الصفات الجيدة وأتبع محاسنها.

وأخذتني الذاكرة إلى الوراء عندما كنت طالبة في الثانوية العامة وكانت لي صديقة مقربة جدًّا تدعى "نهى"، كنت أحبها جدًّا ومتعلقة بها إلى حد كبير، أتأثر بكل ما تفعله وأريد أن نكون متشابهين في كل شيء، كانت تغضب مني وتقول: "فريدة، لا تقلديني، لا تفعلي كل شيء في الحياة مثلي، لماذا تفعلين ذلك؟"
حتى وصل الأمر عندما تتثاءب هي أشعر برغبة في التثاؤب لا إراديًّا، فتغضب مني قائلة: "حتى التثاؤب! في كل شيء تقلدينني". قلت لها: "لم يكن بيدي، شعرت فجأة بأنني أرغب في التثاؤب بعدك".
كنت أحزن من وقع كلامها لأنني كنت أريد تقليدها لأنني أرى أنها ناجحة وذكية وتعرف ما تريد، تعرف أنها تريد أن تلتحق بكلية تدرس بها علوم النفس الإنسانية كالفلسفة أو علم النفس. وبالتبعية أردت أن ألتحق بنفس الكلية لأنني أرى أن صديقتي تريد أن تلتحق بها وأرى صديقتي لديها حلم وتحاول أن تحققه. أما أنا فلم يكن لديَّ حلم معين أو رؤية محددة عما أريد أن أكونه. كانت تتضايق مني جدًّا وتتجاهل حبي لها وتقول: "أنتِ يجب أن يكون لك حلم خاص بك وحدك، لماذا تريدين تقليدي؟" لم أكن أعرف في ذلك الوقت أن أنقل مدى محبتي لها وإعجابي الشديد بتفكيرها وحماستها. كنت أقلدها أيضًا في ملابسها وقصة شعرها وكل شيء فعليًّا.
التحقت كل منا بكلية مختلفة بسبب المجموع التراكمي الذي فرق بيني وبينها. التحقت هي بالكلية التي كانت تحلم بها، أما أنا فدخلت كلية أخرى لم أردها ولكن أرادها لي المجموع الذي تحصلت عليه أو مكتب التنسيق بمعنى أدق. مرت الأيام وتعرفت على أصدقاء عدة أثناء سنوات الدراسة بالجامعة، وتعرفت أيضًا على صديقة أخرى تدعى "أماني". وكانت مشكلتي مع "أماني" هي نفس المشكلة مع "نهى". كنت أريد أن أكون نسخة أخرى من أماني أو نهى أو أي أنسان آخر أرى فيه ما ينقصني.
وأما مشكلتي الحقيقية التي كنت أعاني منها فيمن يبتعد عني ويحاول تجنبي لأنه يعرف ما بي من داء التقليد حتى يمقتني.
عدت من غفلتي التي جعلتني أتذكر الماضي وتيقنت أنني ما زالت في المكتب وسمعت زميلتي "منار" تتثاءب وشعرت بالرغبة في التثاؤب بعدها أيضًا مثلما كان يحدث مع "نهى" أو يحدث مع أي شخص تلقائيًّا، فحاولت أن أكتم التثاؤب ولكن لم أستطع.
عدت إلى البيت وتملكتني رغبة غريبة في أن أتصل بصديقتي القديمة "نهى" وأتحدث معها. شعرت أنني أشتاق إليها. مرت السنون دون أن نحاول التواصل.

خرجت إلى الشرفة ومعي التليفون وجلست في جلسة استرخاء، دائمًا الشرفة هي المكان الذي أشعر فيه بالهدوء والصفاء، هنا المكان الذي أجلس به بالساعات ولا أشعر بمضي الوقت.
حاولت أن أتصل بنفس الرقم القديم وردت والدتها وأعطتني رقم بيت زوجها لأنها تزوجت منذ أشهر قليلة.
ففرحت بسماع الخبر وقمت بالاتصال بها حتى ردت عليَّ. تعجبت كثيرًا عندما عرفت أنني "فريدة " صديقة الطفولة. فرحت وأخذنا نتذكر الذكريات والأيام الجميلة التي جمعتنا معًا.
ظللت على اتصال بها لفترة وتعرفت على أحوالها وعلمت أنها حاليًّا تقوم بتحضير الدكتوراه في مجال علم النفس التي تخصصت فيه وتمنت أن تحقق أحلامها من خلاله، فانتابتني رغبة في أن أحكي لها عن مشكلتي التي تؤرقني دومًا.
أخذت أحكي لها كل ما بداخلي وكيف كانت مشاعري نحو زميلتي "منار" التي تجاورني في مكتب العمل، وأثناء الحديث تثاءبت "نهى" وتثاءبت بعدها تلقائيًّا أيضًا، وضحكنا حينما تذكرنا قديمًا عندما كانت تتضايق مني في ذلك الأمر، كان الوقت متأخرًا وهي تريد أن تنام لتلحق عملها في الصباح الباكر.
قالت لي ضاحكة: لا تشعري بالذنب حبيبتي، كنت ألومك قديمًا على تقليدك لي في التثاؤب ولكن اكتشفت بعد ذلك أن هذا يسمى "التثاؤب المعدي"، وهو أمر طبيعي وتلقائي وهو عبارة عن استجابة.
وأكملت كلامها: في الوقت الحالي، يُرجع العلم الانعكاس في الاتصال هذا كله إلى الخلايا العصبية، فالشخص مسئول عن التعرف على الوجوه وفهم تعابيرها.
يجعل هذا العصب المتلقي يعبس بشدة ويعقد حاجبيه أو يضع وجهًا مبتسمًا عندما يفسر عواطف الشخص الذي يتواصل معه، وهذا العصب هو الذي يسمح بتكرار الأفعال التي يراها ويصنع الوجوه دون حتى أن يتحدث.
الأمر ذاته ينطبق على المشاعر الإيجابية عندما يكون الإنسان في محيطه عدد من الأشخاص الإيجابيين، فيضحك لضحكهم ويبتسم لابتسامتهم.
فالخلايا العصبية بها مؤشرات استجابة تلقائية لبعض الإيماءات والحركات في محيط الشخص.
على سبيل المثال، إذا كان هناك رجل مشهور وناجح يرتدي منديلًا كإكسسوار زخرفي، فإن بقية المجموعة سيعتبرونه عصريًّا ويجب أن يرتدوا مثله أيضًا.
وشعرت أنني لا أفهم ما تقول، فقالت محاولة التفسير: أنا أعني أنه من الطبيعي أن تقومي بتقليد أشياء وصفات تشعرين أنها حميدة ومحببة في الآخرين.
لكن غير المعقول أن تفقدي الهدف الخاص بك ورؤيتك لحياتك وصفاتك الأصلية التي تميزك عن كل من حولك وتنصاعي وراء كل ما يعجبك وتحاولي أن تكوني نسخًا مكررة منهم.
قلت لها بكل استسلام وأنا أتيقن صحة ما تقول وغير مصدقة أنها فهمت كل ما بداخلي بتلك السهولة: "ماذا أفعل؟"
قالت بصوت مرح: تثاءبي مثلما يتثاءب الآخرون دون مشكلة، فهذه الظاهرة تسمى التثاؤب المعدي، وهي ظاهرة طبيعية كما قلت لكِ، ولكن كوني فريدة يا "فريدة".

على المعاش!

استيقظ الأستاذ فتحي ليبدأ يومه الجديد بينما تنهال عليه زوجته بالصيحات والطلبات التي تجعله لا يريد أن يستيقظ، يريد أن ألا يصحو أبدًا كي يستريح من أسقام الديون والطلبات والالتزامات. فتح عيونه ليرى زوجته تهمه بالنهوض ليبدأ عمله، وتذكره بديونه ومتطلبات الأولاد والتزامات ابنته العروس المخطوبة التي يجب أن يجهزها لتتزوج وتذهب لبيت الزوجية السعيد ويستريح من هَمِّ مصاريف ابنة ويتفرغ لبقية الأبناء.

طلب فتحي من زوجته أن تعد له كوب الشاي المعتاد الذي يشربه في الصباح مع ساندوتش الفول الذي اعتادت عليه معدته، لم يعد يعرف طعمًا مميزًا للفطور؛ فهو يأكل من أجل أن يقدر على أن يعمل ويسترزق نهارًا.

ذهبت أم الأولاد لتعد له الفطور بينما هو ظل يفكر سارحًا فيما كانت عليه هيئته قديمًا. تذكر كيف كان يعمل وكيف كان سعيدًا بمهنته ومستمتعًا بها، كيف كان يستيقظ مشرق الوجه. تغيرت الأحوال كثيرًا وتبدل كل شيء حوله. قل الرزق وتزايدت الديون ولكنه يعرف أنه لا يجيد العمل في أي وظيفة أخرى خاصة بعد ما أصبح على المعاش. حاول أن يفكر في أعمال أخرى يمكن أن تضخ له الرزق، ولكن لم تعد صحته تسمح له بالكثير من الجهد.

لم يطلع أسرته على مرضه الجديد الذي اكتشفه مؤخرًا؛ أراد أن يخفي عنهم مرضه اللعين حتى لا يحملوا همًّا جديدًا فوق الهموم التي فوق ظهورهم. أيضًا لا يعرف كيف يأتي بالمال اللازم للعلاج؛ فكل ما يحصل عليه بالكاد يكفي ليعيل أسرته بجانب أجر المعاش الذي يتقاضاه شهريًّا.

شعر الرجل أنه يريد أن يستريح من حموله ويموت ويستريح من ألم المرض ويتخلص من ألم الديون والمسئولية التي تثقل كاهله وتحني ظهره.

نهض من السرير ووقف في الشرفة قليلا مكتئبًا، فجأة فكر أن يلقي بنفسه من الشرفة ويموت ليستريح من آلام لا يقوى على حملها أكثر من ذلك، ماذا لو قفز من الشرفة وتخلص من حياته، سيموت آجلًا أو عاجلًا، إن لم يكن بسبب المرض الذي أصيب به، حتمًا سيموت غيظًا وكمدًا من كثرة همومه.

"الشاي والفطور يا فتحي". قالتها زوجته لتستعجله لينزل لعمله حتى يلحق فرصة أن يتقاضى أي مبلغ يقدر أن يحصله. استفاق فتحي من غفلته، تراجع عن نيته المشئومة، استعاذ بالله، وتذكر أن له ربًّا يعينه ويقويه على ما أصابه.

ونظر لزوجته بحنان: "كم أنت جميله يا أم الولاد، تعبتِ كثيرًا معي". تعجبت السيدة ونظرت له: "ماذا بك؟ هل أنت بخير؟ لماذا تقول ذلك؟ هل حدث شيء؟"

لم يجبها بشيء وابتسم لها فقط، وطلب أن تدعو له اليوم في عمله ليكرمه الرازق، دعت له السيدة متعجبة نظراته وطريقته غير المعهودة معها. فالحياة لم تمهلهم وقتًا ليسعدوا بالحب والرومانسية، كانت تجري وراءهم وتزيد عليهم أوجاعًا وأحمال عسرة؛ من كثرتها لم يعودوا قادرين أن يقفوا ليلتقطوا الأنفاس.

ظن فتحي أنه عندما يكون على المعاش سيرتاح، وستكون تلك الفترة هي بمثابة راحة من مشاكل ومتاعب العمل والضغوط، لم يكن يعلم أنها أشد صعوبة من أي وقت مضى نظرًا لزيادة المصاريف وقلة ما يتقاضاه من دخل، باغتته الحياة، وشعر أن ليس هناك أي هدنة للراحة في تلك الحياة.

خرج الأستاذ فتحي من بيته مسرعًا، وذهب إلى مكان أثري عريق، وقف ينتظر الرزق من الرزاق. تذكر الأستاذ فتحي عندما كان يعمل بذلك المكان العريق موظفًا. كان يعرف تاريخ ذلك المكان العظيم جيدًا، ولديه كل المعلومات الثرية عن المكان؛ لقد عمل فيه سنوات عمره كلها، فكيف لا يعرف كل ما به وكل شيء عنه.

دخل فتحي المكان وسلم على العاملين بالمكان، كانوا يعرفونه جيدًا ويدخلونه ليسترزق، بينما تمتلئ عيونهم شفقة وحزنًا لما أصاب ذلك الرجل الذي كان يعمل معهم ووسطهم حتى جار عليه الزمن وأصبح على المعاش. كانت عيونهم تلاحقه بالخوف؛ خوف من مستقبلهم ومما يخبئه لهم هذا الزمن القاسي.

ظل ينتظر الأستاذ فتحي أي زبون ليقوم بعمله، ويحصل على ما فيه النصيب، ولكن كما كان يعرف أن السياحة لم تكن كعهدها السابق. فاعتمد على من يزور المكان من المواطنين ليلحق بهم ويدلو بالمعلومات التي يعرفها عن المكان. كان يتقمص دور المرشد السياحي ويسرد كل ما يعرفه عن كل شيء في هذا المكان، وفي المقابل يأخذ أي مبلغ يقدره الزبون كمن يقفون في البلاد الأجنبية يعزفون أو يعملون استعراضات في الشوارع ليقدم لهم الناس فتات من العملات وكأنهم يستعطون، ولكن يتم الأمر بشياكة! ظل ينتظر ساعات حتى يجد مبتغاه. فشل عدة مرات متتالية لتجنب الناس له؛ فعندما يبدأ في الشرح لهم، تقوم الناس بشكره وتبتعد عنه. كان يحزن في البداية ولكنه اعتاد الوضع ولم تعد هذه أهم مشاكله.

وجد فتحي بعض الفتيات التي يظهر عليهن أنهن يتساءلن عن المكان، فذهب إليهن وبدأ في الشرح والسرد للتواريخ وللأحداث التي جرت هناك في الأزمان السابقة. استمتعت الفتيات بحكايات الرجل العجوز وبطريقة سرده المبهرة الشائقة، ظل معهن وقتًا يأخذهن في جولة حول المكان حتى فرغ من مهمته وأنهى حديثه منتظرًا، فشكرته إحدى الفتيات، وبدأن في المغادرة لأنهن لم يفهمن أنه يريد منهن أي شيء تكريمًا لما سرده وحكاه في جولتهن. صمتت الفتيات ثم تهامست بعضهن متسائلات عما يريد.

نظر الرجل حوله وعرف أن النهار بدأ في الانقضاء ولم يعد هناك كثير من الفرص ليقتنصها؛ فالمكان به قليل من الناس ولن يتمكن من أن يجد أحدًا آخر ليقوم معه بعمل المرشد. وفكر في زوجته التي تنتظره ليعطيها مصاريف المنزل لتشتري بعض الأطعمة البسيطة حتى يقتاتوا منها.

تغرغرت عيناه بالدموع محاولًا أن يحبسها دون جدوى حين دقق في الفتيات ووجدهن في نفس سن ابنته العروس التي يقوم بتجميع مصروفات جهازها. وخرجت الكلمات من على لسانه بصعوبة: "الله يكرمكم، أنا لا أعرف ماذا أقول، لكن ... لكن أنا عندي بنت في مثل سنكم، ومن الصعب جدًّا لي أن أمد يدي لكم وأقول لكم أعطوني أي شيء لأذهب به للبيت حتى لا أحبط آمال زوجتي التي تنتظرني". وبدأ الأستاذ فتحي يبكي غير مبالٍ بشكله، ولكنه لم يقدر أن يمسك نفسه بعد هذا الموقف.

لم تكن مشكلته أنهن لم يفهمن أنه يريد مالًا مقابل ما قام بشرحه لهن، ولكن كانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير! زاد عليه كل شيء ولم يعد يحتمل هموم الحياة أكثر من ذلك، تجرع كل ألوان التحمل وفاضت به الكأس، وأحس أنه غير قادر على أن يستكمل في تحمل المشقات والاستجداء والمرض والضغوط.

تجمعت أمام عينيه كل مشاكله وأحس بانكسار أمام الفتيات عندما تذكر ابنته. شعر الرجل بالمذلة، أحس أنه عاجز، لم يستطع المقاومة أكثر من ذلك. تجمعت الناس حوله وحاولوا أن يواسوه وعرضوا عليه المساعدة المالية ولكنه رفض، حتى اعتذرت له الفتيات ووعدنه أنهن سيقومن بوضع صورته وقصته على شبكات التواصل الاجتماعي حتى يتمكن من البحث عن وظيفة.

ذهب الرجل إلى بيته منكسرًا، لم يعد قادرًا على الكلام أو العمل من بعد ذلك اليوم، جلس في غرفته ولم يعد يبالي بشيء، حتى أخرجه من سرحانه صوت التليفون يدق، رد الرجل وتحدث قليلًا حتى خرج مسرعًا من البيت ولم يأتِ إلا في المساء ليفرح كل البيت بالأخبار السارة.

قامت الفتيات بإنزال قصته وانتشرت حكايته حتى اتصل به أحد رجال الأعمال ليقوم بمساعدته وتوظيفه وعلاجه أيضًا، لم يكن يعرف أن الله فرجه قريب وسريع بهذا الشكل، وردد متهللًا: "ضاقت فلما استحمكت حلقاتها فرجت، وكنت أظنها لا تفرج".

له ما له وعليه ما عليه!

"أنا لست شريرة على طول الخط، لا يمكن أن يحدث هذا".

انطلقت الشخصية 1 تصرخ في وجهي بينما أنا أحاول أن أفيق مما يحدث حولي، هل جننت؟ كيف يحدث هذا؟ أتحاسبني تلك الشخصيات وأنا صاحب الفضل عليهم.

حاولت أن أرسم خطوطًا متباينة لكل شخصية، وأن أحدد ملامح واضحة تسير عليها الأمور. تمكنت أخيرًا بعد وقت طويل أن أسند الصفات لكل واحدة فيهم. فهناك من أسندت له صفات الشر والنذالة والخسة، وهناك من ألصقت بضهره الجناحين ليكون الملاك الأبيض المحبوب الخير، فكرت مليًّا كيف أجعل الآخرين كارهين للشخصية 1، ظللت أبحث عن مواقف تشير إلى وضاعتها، وضعت لها أسوأ صورة، وصلت إلى أقصى معالم الشر التي يتمتع بها الشيطان وحده.

بينما أنا مندمج في عملي، ظهرت "الشخصية 1" لتعترض على ما أفعل وتقول: "كيف لي أن أكون هكذا، أنت ترسم لي ملامح خاطئة، لماذا "الشخصية 2" بريئة ووديعة وخيرة وطيبة ومحبوبة، كيف تعطيها كل الصفات الحميدة وتلصق بي أنا وحدي الرذيلة والشر القسوة؟"

حاولت أن أهدئ من روعها وأفهمها وجهة نظري رغم أنني الوحيد صاحب القرار وصانعه، وليس من شأن أحد أن يحاسبني أو يملي عليَّ ما أفعله، فقلت ببساطة: "أنتِ شخصية شريرة، ذات طابع عنيف وقاسٍ، من الطبيعي أن تكوني قاسية، باردة، متكلفة، طامعة وعنيدة. هل يصلح أن أجمع متناقضات في شخصية واحدة؟ وأيضًا من الطبيعي أن تكون الشخصية 2 هي الطيبة والمحبوبة والأصيلة والشهمة".

ردت عليَّ بسخرية: "لا تريد حتى أن تضع لي موقفًا طيبًا أو شيئًا واحدًا ينم عن صفة جيدة بي، كل ما تريده أن تجعل الناس جميعًا يكرهونني، ولكي تنال مرادك، تجعل مني شيطانًا وليس بشرًا".

"ماذا تريدني أن أفعل، لقد أفهمتك أن ليس هناك وجود للمتناقضات في الواقع، كيف أنقل الصورة واضحة للناس بينما أنا أتأرجح بين الشر والخير في قالب واحد، كيف أجمع بينهما، كيف أوقفهما في شخص واحد، الناس سوف تستنكر ذلك، سوف يتوهون بين ضباب التشويش، لن يحصلوا على صورة واضحة مباشرة". شرحت لها بهدوء أسبابي كي تقتنع ولكن دون جدوى.

صممت قائلة: "تعالَ معي إلى الشرفة لأريك بنفسي ماذا أقصد". ومسكت بيدي وقادتني بالفعل إلى الشرفة ووقفت بين يدي لتشير لي وتشرح منطقها.

قالت بجرأة: "انظر، أترى عم مجدي، صاحب القهوة في الشارع، ما رأيك به؟"

قلت دون تردد: "إنه رجل طيب، يعمل بكد ويقوم بعمله على أحسن وجه".

قالت: "ممتاز، ما علاقته بأولاده وزوجته؟"

قلت: "لست متأكدًا، ولكن أولاده كثيرو الشكوى من قسوته وشحه، يقولون إنه لا يقوم بكل التزاماته معهم، فهو معروف عنه أنه بخيل".

قالت بسرعة: "ومع ذلك أنت تصفه بأنه طيب وشخص مجتهد في عمله، أرأيت كيف يمكن أن تجتمع في شخص واحد صفات سيئة وصفات جيدة؟ ماذا عن السيدة أم هاني جارتنا التي تراها الآن تسير في الشارع، أتراها؟"

قلت: "أعوذ بالله! نعم رأيتها، فهي سيدة سليطة اللسان، تنعت الآخرين بأقبح الصفات، لا تحسن التعامل مع الناس، لا تطاق".

قالت: "ألا تتذكر لها أي شيء جيد؟"

قلت: "لا أعرف، لكن أتذكر شيئًا واحدًا، وقتما توفيت أمي، وقفت بجانبي وكانت شديدة الاهتمام بي، في الشدة رأيت معدنها الأصيل".

قالت: "أنت تقول بنفسك، ماذا عن كل الناس في حياتك، ليس هناك أبيض تمامًا أو أسود تمامًا، الحياة مليئة بالتناقضات للأسف".

ليس هناك وجود لشخص مثالي، طيب، ملاك، يفعل الخير دائمًا وليس له سقطات أبدًا أو جانب مظلم! والعكس صحيح، لا يوجد شر مطلق، شخص مليء بكل العيوب وليست به حسنة واحدة، هذا واقع الحياة.

نظرت لها في تعجب: "صدقت، رغم أنني كاتب ومؤلف ولى الحق في تقرير مصير الشخصيات التي أكتب عنها في رواياتي الجديدة إلا أنكِ معك كل الحق، يجب أن أغير ما كنت أقوم به، سأفكر في رؤية جديدة للشخصيات، رؤية واقعية، تنقل الحقيقة مثلما نقلتِ أنت لي الحقيقة من الشرفة".

خرجت الشخصيات من الورق لتكشف لي –أنا- الكاتب حقيقة لم أكن ألمسها أو ألحظها، تشاجرت معي لكي تنقل لي حقيقة يقع فيها الكثير من الكتاب والمؤلفين دون وعي بل أيضا عامة البشر !

واتجهت مباشرة إلى الورق كي أكتب الخط الجديد الذي سأبني عليه روايتي الجديدة. تنهدت ومسكت قلمي: "قد تجد سلوكيات سوية من الأشخاص غير الأسوياء، وقد تجد أيضًا سلوكيات غير سوية من الأشخاص الأسوياء، قد تجد حسنات للأشرار، وقد تجد أيضًا سيئات للأخيار، لا تتعجب! كل شخص له ما له وعليه وما عليه".

الفهرس

مريم أنيس؛ كاتبة مصرية خريجة كلية الإعلام بجامعة القاهرة قسم اللغة الإنجليزية ، تعمل في مجال الصحافة والإعلام، وصدر لها من قبل مجموعة قصصية "الزاوية الصفراء"، وكتاب "خواطر إنسانية".